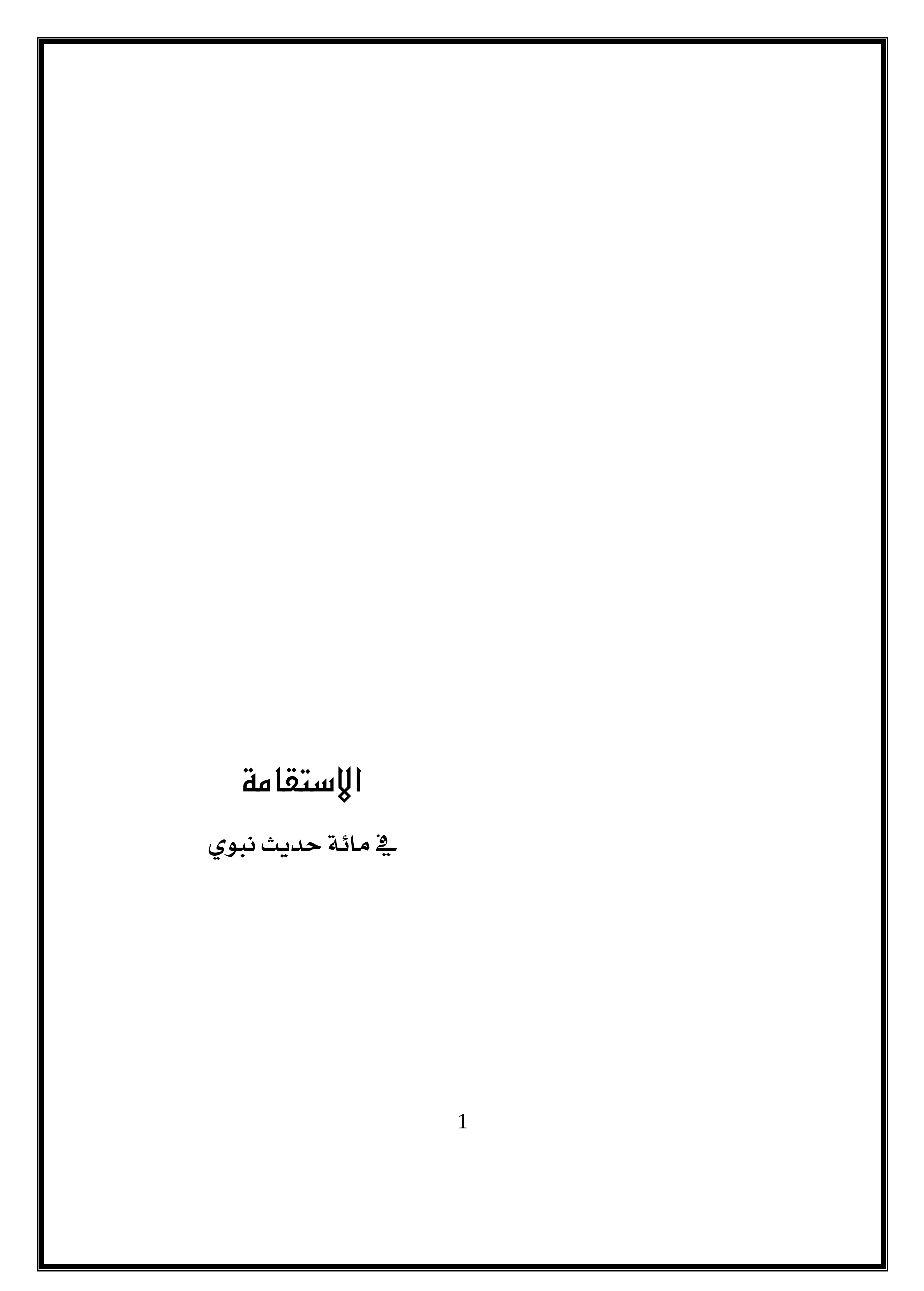


الإستقامة

في مائة حديث نبوي

الطبعة الأولى/١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م
الطبعة الثانية/ ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م
الطبعة الثالثة المنقحة/ ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م
الطبعة الرابعة المنقحة /١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

البريد الالكتروني للمؤلف:
khedher@maktoob.com
صفحة المؤلف على الانترنيت:
www.al-mishkat.com/khedher

الاستقامة

في مائة حديث نبوي

الدكتـــور محمـــد زكـي محمـــد خضـــر

الطبعة الرابعة المنقحة
١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه إلى يوم الدين.

وبعد، فقد يسّر الله جمع مائة حديث في أبواب الاستقامة... ولكن لماذا الاستقامة؟ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾[فصلت: ٣٠].. فالمسلمون قد مضوا بشطر هذه الآية حيث قالوا ربنا الله فأقروا بشهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمدًا ﷺ رسول الله.. أما الشطر الثاني فمعظمهم بعيد عنه... لقد وعدهم الله، ووعد الله حق.. إذا ما استقاموا أن تتنزل عليهم الملائكة وهي تنادي أن لا تخافوا.. ولاتحزنوا.. وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون.. فالحزن بعيد عمن إستقام.. والخوف بعيد عنه.. وله البشرى.. وله الرزق الحسن.. ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ۝١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا﴾ [الجن: ١٦-١٧].. وما الطريقة التي تريد الآية الاستقامة عليها سوى الطريقة التي سار عليها رسول الله ﷺ، فهو أول من سلك طريقة الاستقامة قدوة لهذه الأمة مستجيبًا لأمر الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ وليس ذلك وحده.. بل: ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾.. وطريق الاستقامة هذه تسير بعكس طريق الطغيان.. ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [هود: ١١٢]. ويؤكد الله ذلك مرة أخرى على رسوله ﷺ بقوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥] ..كما أمره أن يخاطب الناس يدعوهم للاستقامة: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [فصلت/٦].

وهكذا يتضح الطريق أمام المؤمن.. فليس له أن يسلك طريقًا سواه.. أدع.. إستقم كما أُمرت.. ولا تَتبع أهواء الكافرين والفاسقين والمنافقين.. ثم الحذر أن تزل القدم

بالفتنة فيزيغ المرء عن الصراط المستقيم.. ففيما أنزل الله على رسوله الحق.. كل الحق.. وليس غير الحق. ومن ثم تكون الاستقامة خير من ألف كرامة.

قال أبو بكر الصديق ﷺ مخاطبًا رسول الله ﷺ: شِبتَ يا رسول الله! فقال: "**شيَّبَتني هود وأخواتها**».. وماذا في هود مما يشيب الرسل أثقل من قوله تعالى: فاستقم كما أمرت.. فما هو طريق الاستقامة هذا؟ وما عسى المؤمن أن يفعل لكي يسير على هذا الطريق؟ وما الاستقامة التي يريدها الله تعالى لرسوله.. ولمن تاب معه..؟ ندعو الله أن يكون في هذا الكتاب الاجابة على ذلك.. فهذا كتاب لمن قال (ربنا الله).. موقنًا بها بصدق... ثم بعد ذلك تكون هذه الأحاديث مرشدة له على طريق الاستقامة إن شاء الله. ورغم أن بين دفتي الكتاب أكثر من سبعين حديثًا آخر ضمن الشرح أو الهوامش، لكنه لا يكاد يستوعب جميع مضامين الاستقامة، فكل موضوع من مواضيع الأحاديث المائة فيه عشرات من الأحاديث ويستحق كتابًا خاصًا ربما في مائة حديث.. ولكن ندعو الله أن تكون هذه الأحاديث مصابيح لسالكي طريق الاستقامة، كي يتعلموها ويتمعنوا فيها ويعملوا بها ويدعوا إلى ما فيها.

هذا الكتاب لا يكاد يتجاوز إعطاء إشارات عما ورد فيه من أحاديث صحيحة.. فما هو إلاّ تأملات في ظلال هذه الأحاديث.. وهل يمكن أن يحوي كتيبًا صغيرًا كهذا شرحًا للاستقامة التي مجالها العملي هو الدين كله، بعد مجال الجزء النظري من الدين أي العقيدة؟ لقد تم توزيع أحاديث الكتاب على سبعة أبواب. الباب الأول يتعلق بإستقامة الأعمال الباطنة كالنية والإخلاص والتزام التقوى ومحبة الله ورسوله ﷺ والتوبة إلى الله عزوجل واليقين به والرضا بما قدر والصبر على البلاء والتوكل على الله والقناعة والزهد والخوف والرجاء.

أما الباب الثاني فيضم الاستقامة فيما يتخذ المؤمن من منهاج ودليل عمل يستند إلى المعرفة بالله تعالى. فعلى المؤمن أن يعتبر القرآن مصدره الأول ثم سنة رسوله ﷺ، ثم بعد ذلك يأتي الاجتهاد ولزوم الجماعة وعدم إطاعة مخلوق في معصية الله تعالى وأن لا يكون إمعة ويجتنب البدع وسبل المشركين والمنافقين. وعلى المؤمن أن ييسر ولا يعسر وأن يتقن عمله ويستغل أوقاته ويتسامح مع من خالفه فيما إختلف فيه الفقهاء وأهل العلم ويستخير ربه في أمور دنياه وآخرته.

والباب الثالث هو باب العبادات والتي تأتي في مقدمتها الصلاة والصيام والزكاة والحج لمن استطاع إليه سبيلاً، وليست العبادات تلك فحسب، فالطهارة عبادة وتلاوة القرآن عبادة وطلب العلم عبادة، وكذلك الذكر والدعاء والصلاة على رسول الله ﷺ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله والتفكر في خلق الله والشكر على نعمائه.. كل هذه من العبادات.

ويتضمن الباب الرابع أحاديث إجتناب المعاصي التي نهى عنها الله ورسوله وأسس تحديد الاثم. فالكبائر التي حرم الله تعالى يجب اجتنابها مثل عقوق الوالدين وقطع الأرحام وأكل مال اليتيم وقتل النفس التي حرم الله والخمر والميسر والزنا وقول الزور والسحر وقذف المحصنات والتخنث ولبس الذهب والحرير للرجال

وتشبه النساء بالرجال وتركهن الحجاب والخيانة والكذب والظلم والغش واللعن والاحتكار. أما الباب الخامس فتتعلق أحاديثه بالأخلاق، وإنما بعث رسول الله ﷺ ليتمم مكارم الأخلاق من صدق وحسن خلق وحياء وحفظ اللسان وتواضع وغض للبصر وسخاء ورحمة لعباد الله وترك الجدال وما لا يعني.

أما الاستقامة في المعاملة فهي موضوع أحاديث الباب السادس وأساسه أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه، وحب الصالحين وبذل النصح والعدل بالحكم والاحسان إلى الجار وذوي الأرحام والرفق في كل شيء وخاصة للمرء مع أهل بيته وطاعة المرأة لزوجها ورعايتها لولدها وأداء الأمانات والايفاء بالوعود. وفي آخر باب من الكتاب وضعت أحاديث في تزكية النفوس، فقد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها. فإجتناب التكبر والرياء ومحاسبة النفس وترك الحسد وسوء الظن وذكر الموت، كل تلك من جوانب الاستقامة.

إن الاستقامة التي كانت حملاً ثقيلاً على رسول الله ﷺ، أثقل من أن تجمع في صفحات كتيب كهذا، وما أهمله الكتاب أكثر مما ذكر فيه وحسب الكتاب أن جمع بعض جوانبها، وهو لا يخلو من هفوات ونقائص شأنه شأن كل كتاب غير كتاب الله تعالى فمن وجد فيه خيرًا فليحمد الله فمنه الفضل وحده، ومن وجد فيه غير ذلك فليدعو الله أن يغفر الزلات، ولا يظنن ظان تزكية عمل كهذا:

أمرتك الخير لكن ما إتمرت به　　　وما استقمت فما قولي لك استقم

وحسبنا أن نحب الاستقامة وأهلها وندعو الله أن يهدينا إلى طريقها ويحشرنا تحت لواء رسول الاستقامة ﷺ.. وهو الهادي إلى الصراط المستقيم.

المؤلف

الموصل في ١٢ربيع الأول ١٤٠٨هـ

الموافق ٤ تشرين الثاني ١٩٨٧م

آيات الاستقامة

١ - ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود: ١١٢].

٢ - ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١٥].

٣ - ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس/٨٩].

٤ - ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠].

٥ - ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأحقاف/١٣].

٦ - ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ [الجن/١٦].

٧ - ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ [فصلت: ٦].

٨ - ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩].

٩ - ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة:٧].

١٠ - ﴿ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

١١ - ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٦٧].

١٢ - ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [الحجر: ٤١].

١٣ - ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٦].

١٤ - ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ [التكوير: ٢٨].

١٥ - ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦].

١٦ - ﴿ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الصافات: ١١٨].

١٧ - ﴿ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء: ٦٨].

١٨ - ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء: ١٧٥].

١٩ - ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح: ٢].

٢٠ - ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٠].

٢١ - ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٥١].

٢٢ - ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [مريم: ٣٦].

٢٣ - ﴿ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾[يس: ٦١].

٢٤ - ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [الزخرف/٦١].

٢٥ - ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾[الزخرف: ٦٤].

٢٦ - ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٢].

٢٧ - ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

٢٨ - ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

٢٩ - ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة/١٦].

٣٠ - ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

٣١ - ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام/٨٧].

٣٢ - ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

٣٣ - ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥].

٣٤ - ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

٣٥ - ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦].

٣٦ - ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١].

٣٧ - ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

٣٨ - ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المؤمنون: ٧٣].

٣٩ - ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦].

٤٠ - ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦]، [يس: ٤].

٤١ - ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ <u>مُّسۡتَقِيمٖ</u> ﴾ [الشورى: ٥٢].

٤٢ - ﴿ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ <u>مُّسۡتَقِيمٖ</u> ﴾ [الزخرف: ٤٣].

٤٣ - ﴿ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ <u>مُّسۡتَقِيمٖ</u> ﴾ [الملك: ٢٢].

٤٤ - ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ <u>ٱلۡمُسۡتَقِيمَ</u> ﴾ [الأعراف: ١٦].

٤٥ - ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي <u>مُسۡتَقِيمٗا</u> فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

الباب الأول
استـقـامـة السرائر

١ـ النية

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه:

"إنّ اللّه كَتب الحَسَنات والسيئات ثمّ بيَّن ذلك فمَن همّ بحَسَنة فلَم يَعملها كَتبَها اللّه تبارَكَ وَتعالى عندهُ حَسَنَة كاملة، وإن همّ بها فعَملها كَتبها اللّه عشر حَسَنات إلى سبعمائة ضِعف إلى أضعاف كثيرة، وإن همّ بسيئة فلَم يَعملها كتبَها اللّه تعالى عنده حَسَنَة كاملة، وإن همّ بها فعَمِلَها كَتبَها اللّه سيئة واحِدة» [متفق عليه][(١)]

يبدأ الكثير من كتب الحديث بالحديث المشهور الذي قال عنه بعض أئمة الحديث أنه وصل حد التواتر المعنوي[(٢)] **"إنّما ألأعمال بالنيات وإنّما لكُل إمرئ ما نوى، فمَن كانت هِجرَتهُ إلى اللّه ورسوله فهجرته إلى اللّه ورسوله، ومَن كانت هجرته لدُنيا يُصيبُها أو إمرأة ينكِحُها فهجرته إلى ما هاجر إليه»** [متفق عليه]

فالنية أساس العمل، تقترن النية الصالحة بالعمل القليل فترفعه ليكون من أقرب القربات إلى الله تعالى، أما النية السيئة فإذا اقترنت بالعمل الصالح الكثير فإنها تحيله هباءً منثورًا. قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

أنظر إلى كرم الله تعالى: ينوي المرء فعل حسنة ثم لا يفعلها فيكتبها الله له حسنة، فإذا فعلها تضاعفت عشرًا أو مائة أو سبعمائة أو أكثر من ذلك إلى ما شاء الله

---

(١) متفق عليه أي إتفق عليه الشيخان: البخاري ومسلم.
البخاري هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الحافظ الأمين لأحاديث رسول الله ﷺ. قال عنه إبن خزيمة: ما تحت أديم السماء أعلم بالحديث منه. ولد في بخارى سنة ١٩٤هـ ورحل في طلب الحديث إلى العراق والشام ومصر وسمع الحديث عن نحو ألف شيخ. قال: خرّجت كتابي هذا من زهاء ٦٠٠ ألف حديث وما وضعت فيه حديثًا إلا وصليت ركعتين وصنفته في ١٦ سنة وسمعه منه ٩٠ ألف رجل وعدد أحاديثه من دون المكرر ٤٠٠٠ حديث أما إذا حذف منها المعلق والموقوف والمكرر فيبلغ ٢٧٦٠ حديثًا. أبتلي بفتنة خلق القرآن فثبت وأخرج من بخارى فتوفي في الطريق ودفن في قرية خرتنك قرب سمرقند سنة ٢٥٦هـ ﷺ.
ومسلم هو أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. ولد سنة ٢٠٤هـ وتوفي سنة ٢٦١هـ. قال: صنفت كتابي هذا من ٣٠٠ ألف حديث مسموعة وقال الحافظ النيسابوري شيخ الحاكم عنه: ما تحت أديم السماء أصح من كتاب مسلم. وكان إذا دخل على البخاري قبّل يده وقال يا طبيب الحديث. يحوي صحيحه ٤٠٠٠ حديث والتكرار فيه أقل من صحيح البخاري.

(٢) التواتر المعنوي هو رواية الحديث بألفاظ مختلفة تدل على المعنى نفسه من قبل عدد كبير جدًا من الرواة في كل جيل منهم بحيث يحصل تمام اليقين بنسبته إلى رسول الله ﷺ. فقد ورد هذا الحديث بألفاظ مثل " إنما الأعمال بالنية أو ألأعمال بالنيات» وغير ذلك.

بحسب نيته وإخلاصه.وإن نوى فعل سيئة ثم فعلها، كتبت له سيئة واحدة لاغير. أما إذا لم يفعلها فإن الله يكتبها له حسنة. ولا تعجب من ذلك فإن ترك السيئة هو حسنة بذاته.

هذا الحديث يذكر المؤمن بأن ينوي فعل الخير في كل لحظة يستطيع ذلك، فإن إستطاع تنفيذ فعل الخير فبها ونعمت، وإن لم يستطع فإن الله يجازيه على حسن نيته. وهكذا فإن نية المؤمن خير من عمله لأن ما ينويه من خير أكثر مما يستطيع عمله في وقته المحدود وماله المحدود وقابلياته المحدودة. ولذلك على المرء أن يراقب نيته كما يراقب عمله فإذا ما وجد في نيته قصدًا لغير الله وجب عليه تصحيح نيته في ذلك.

وقد يعجب بعض الناس من بركة عمل صالح لفرد ما حيث تتضاعف الفائدة منه وبذلك ينال صاحبه أجرًا عظيماً، بينما لا يحصل آخر عمل عملاً مشابهاً على مثل تلك النتيجة، وما ذلك في أغلب الأحيان إلا بتأثير النية الحسنة، فأول خطوات الاستقامة تصحيح النية لكي تكون خالصة لله تعالى.

والنية الحسنة لا تحيل المعصية خيرًا. قيل كان رجل يسرق كل يوم درهمًا فيشتري به خبزًا فيدفعه إلى فقير. فلما إكتُشف أمره قال إنه يسرق فيكسب سيئة واحدة فيتصدق فيكسب عشر حسنات، تمحو إحداهن السيئة فيبقى له تسعاً. فهذا الجاهل قد إكتسب سيئة ولم تكتب له أية حسنة، لأن الصدقة من الحرام غير مقبولة والنية الحسنة هنا لا تجدي نفعاً. لكن النية الحسنة في الأمر المباح تحيله عبادة. فالترويح عن النفس بغير نية إذا لم يكن فيه معصية لا إثم ولا ثواب فيه. أما إذا كانت النية في الترويح عن النفس الاستعداد لطاعة الله، فعند ذلك يصبح الترويح عن النفس عبادة. قال أبو الدرداء إني لأستجم نفسي بشيء من اللهو فيكون ذلك عوناً لي على الحق. وقال علي بن أبي طالب ﷺ: روِّحوا القلوب فإنها إذا كرِهَت عَمِيَت. وفي رواية إذا كلّت عميت أو تعبت.

٣ـ الإخلاص

عن أبي هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ:

«قالَ اللّهُ تبارِكَ وتعالى أنا أغنى الشُرَكاءِ عَن الشِرك. مَن عَمِلَ عَمَلاً أشرَكَ فيهِ معي غيري تركتهُ وشِركَهُ» [رواه مسلم]

الإخلاص شرط في قبول الله تعالى للعمل الصالح، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، قال الفضيل بن عياض[١]: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما. وهكذا فإن تمام اليقين بشهادة أن لا إلَـه إلاّ الله أن لا ينوي حينما يفعل إحساناً الاّ أن ذلك لله وحده، ولا يترك فعلاً إلاّ لله، ولا يتأثر بفعل ما سواء حضر الناس أم غابوا. فإنه ليس لله حاجة بعبادة أحد له، وهو أغنى الشركاء عن الشرك، فإذا أشرك العبد في أمر ما بحيث قصد أن يكون لله وللناس فإن الله غير محتاج لذلك العمل. وعلى المسلم أن يراقب نيته وقصده في كل عمل فما كان فيه شركاً مع الله تعالى فعليه أن يصحح نيته فيه لكي تكون خالصة لله. كما عليه أن يجتنب الشرك في القول، كقول أحدهم: هذا لله ولك، أو قوله إذا أراد الله وأردت، والحلف برأس المخاطب، كما عليه أن يجتنب الشرك في الفعل كالذبح تحت أقدام البشر، أو الركوع أمامهم، أو الغلو في مدحهم بما يوهم رفعهم فوق مستوى البشر.

وعلى المؤمن أن يكون له، ولو جزءاً من عمله خالصاً من أي رياء أو منّ على أحد، من أعمال السر بحيث لا يعلم به أحد إلاّ الله كصدقة السر أو صلاة التهجد منفرداً أو إحسان لا يعلم به أحد حتى من يستفيد منه ويجهد نفسه على أن تكون الأعمال الظاهرة الأخرى خالصة من الشوائب قدر إستطاعته فتلك خطوة أخرى على طريق الإستقامة.كما أن عليه أن لا يترك عملاً صالحاً من أجل الناس قال الله تعالى عن المؤمنين: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]. فهو لا يرى لغير الله إرادة أو إستطاعة لضرر إلاّ بإذنه وكلما إزداد المؤمن إيماناً كلما وضحت عنده تلك الحقيقة وفتح الله له بحيث يرى براهين جديدة تطمئن إليها نفسه. كتبت عائشة رضي الله عنها إلى معاوية ﷺ: سلام

---

(١) الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي. نشأ في خراسان من ناحية مرو، كان قاطع طريق، وكان سبب توبته بينما هو يرتقي الجدران إبتغاء الوصول إلى جارية أحبها إذ سمع تاليًا يتلو: "**ألَم يَأنِ لِلّذينَ آمنوا أن تخشعَ قُلوبُهُم لِذِكرِ اللهِ**»، فقال يا رب قد آن، فرجع فآواه الليل إلى خربة فإذا فيها رفقة يريدون أن يرتحلوا فقال بعضهم حتى نصبح فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا فتاب وأمنهم. وجاور بمكة حتى توفي سنة ١٨٧هـ. وكان ورعا تقيا.

عليك، أما بعد فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**مَن أرضى الناسَ بسَخطِ اللهِ وكَلَهُ اللهُ إلى الناسِ، ومَن أسخطَ الناس برضاءِ اللهِ كَفاهُ اللهُ مؤنةَ الناس**» [رواه الترمذي وأبو نعيم في حلية الأولياء]

٣ـ التقوى

عن معاذ بن جبل ؓ قال قال رسول الله ﷺ:

"**أتقِ الله حيثما كنتَ وأتبع السيئةَ الحسَنة تمحُها وخالِقِ الناسَ بخُلُق حَسَن**»

[رواه الترمذي وقال حديث حسن][١]، [٢].

حث الله تعالى في القرآن الكريم على التقوى في أيات كثيرة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:102]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ [الحج: ١]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [الأحزاب: ١]. وكلمة التقوى مشتقة من الوقاية، فالتقوى هي إطاعة الله خشية عذابه، وهي عمل بطاعة الله على نور من الله مخافة عقاب الله.

ويدعو الملائكةُ للمؤمنين كما يحكي لنا القرآن الكريم: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [غافر: ٩]، وعلى المسلم أن يدعو الله على الدوام أن يقيه الوقوع في السيئات والآثام، أليس هو الذي يدعو ربه في كل ركعة من ركعات صلاته: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]. وكان رسول الله ﷺ يدعو: "**اللَّهُمّ إني أسألكَ الهُدى والتقى والعفاف والغنى**» [رواه مسلم]

إن مكان التقوى هو القلب، لكن الدليل على مايضمره القلب هو الأعمال الظاهرة على الجوارح، فمن ادّعى التقوى وكانت أعماله تناقض قوله فقد كذب. ويختلف مقدار ما يفرض الله على المرء من تقوى بحسب إستطاعته، قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦]. والسبيل إلى التقوى هو مراقبة النفس ومنعها عن إتباع أهوائها بما يناقض أوامر الله تعالى ولكي تنقاد إلى ما أمر به وعدم الغفلة سواء

(١) الإمام الترمذي هو أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، ولد سنة ٢٠٠هـ بترمذ وتوفي بها سنة ٢٧٩هـ وكان حافظًا بارعًا في علم الحديث، كتابه المعروف بسنن الترمذي فيه أكثر من ٥٠٠٠ حديث وهوالثالث في الترتيب بعد صحيحي البخاري ومسلم. وفيه القليل جدًا من الضعيف. وإذا قيل عن حديث رواه الثلاثة فيعني ذلك البخاري ومسلم والترمذي.

(٢) الحديث الحسن هو إصطلاح أوجده الترمذي ويقصد به الحديث الذي هو دون الصحيح وفوق الضعيف. ويعتبره معظم أئمة الحديث من الصحيح لكن فيه علة خفيّة لا تقدح في صحته.

في حالة الانقياد الى أمر الله أو إجتناب نواهيه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

٤ـ محبة الله ورسوله

عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال:

"**ثلاث من كُنَّ فيهِ وَجَد بهنَّ حلاوَةَ الأيمان:أن يكونَ اللّه ورَسولُه أحبّ إليـه ممـا سواهُما، وأن يُحِبّ المَرءَ لا يُحبّه إلاّ للّه، وأن يَكره أن يعودَ في الكُفرِ بَعدَ أن أنقَذَهُ اللّهُ منه كَما يَكرَهُ أن يُقذَفَ في النار»** [متفق عليه]

محبة العبد لربه نور يقذفه الله في قلوب من يحب من عباده الصالحين حتى أن العبد ليجد حلاوة ذلك فلا يعبأ بما يلاقي من أذى في سبيل الله. إسمع قوله جل شأنه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

وهكذا فإن محبة العبد لربه مقترنة بمحبة الله تعالى لعبده. ومحبة العبد لربه دليل على معرفته به، قال الحسن البصري ﷺ: من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل، فإذا تفكر حزن.

ولكن ما الدليل على صدق من يدعي محبة الله تعالى؟ إن جواب ذلك في كتاب الله: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [آل عمران: ٣١]، قال ذو النون المصري ﷺ[1]: من علامات المحب لله عز وجل متابعة حبيب الله ﷺ في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه. ومن يصدق في محبته لله ولرسوله يرخص عنده كل غال في سبيل الله. إستمع قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤]. وقد أحسن من قال:

تعصي الاله وأنت تزعم حبه — لعمري إن ذا في القياس شنيع
لو كان حبك صادقاً لأطعته — إن المحب لمن يحب مطيع

---

(١) ذوالنون المصري هو ثوبان بن إبراهيم كان أبوه نوبيًا، كان عالمًا ورعًا. سُعي به إلى المتوكل فأحضره من مصر فلما دخل عليه ووعظه بكى المتوكل ورده إلى مصر مكرمًا. وكان إذا ذكر أهل الورع عند المتوكل يقول حيهلا ذوالنون. توفي ﷺ سنة ٢٤٥هـ.

أتى أعرابي إلى النبي ﷺ فقال متى الساعة؟ قال له ﷺ: "**ماأعددت لها؟** "قال ما أعددت لها كثير عمل ولكني أحِبّ الله ورَسولِهِ، قال: " **أنت مع مَن أحببت**» [متفق عليه]، ففرح الصحابة بتلك البشرى فرحاً شديداً لأن هذا الحديث بشرى عظيمة لمن أحب الله ورسوله، فإن حب الله ورسوله لا يدانيه في الثواب عمل آخر. وعلى المؤمن أن ينظر إلى محبة الكفار لآلهتهم وأوليائهم مما سوى الله فيكون أشد حباً لله مما يحبون، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

٥ـ التوبة

عن أنس بن مالك ﷺ قال قال رسول الله ﷺ :

"**لَلّهُ أشدّ فرَحًا بتوبَة عبدِهِ من أحَدِكُم سَقَطَ على بَعيرِهِ، وَقد أضَلّهُ بأرض فلاة»**

[متفق عليه]

هكذا يحب الله توبة عبده، لذا عليه أن يتوب بعد كل ذنب أومعصية، وليس ذلك فحسب بل عليه أن يجدد التوبة مرة بعد أخرى، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة:٢٢٢]، فالتواب هو الذي يجدد التوبة مرة بعد أخرى وكان رسول الله ﷺ يقول: "**إنّي لأستغفِرُ اللّهَ في اليومِ والليلَة أكثرَ من سَبعينَ مَرّة»** [رواه البخاري]. وإذا كان هَذا حال رسول الله ﷺ في الاستغفار والتوبة وهو الذي قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكم علينا أن نستغفر الله؟ ومع ذلك تجد بين المسلمين من يغفل عن ذلك نسيانًا أو إهمالاً أو إستهانة .

وللتوبة شروط، فإن كانت متعلقة بأمر هو لله فقط فشروطها ثلاثة هي الاقلاع عن الذنب والتصميم على عدم العودة فيه والندم على فعله.أما إذا كانت متعلقة بحق آدمي فلها شرط رابع هو أن يسترضي صاحبها. ولا تتم التوبة إذا فُقد أي شرط من شروطها.

إن حقوق الله تعالى أعظم من أن يقوم بها العباد، وإن نعم الله أكثر من أن تحصى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم:٣٤، والنحل:١٨]. ولكن على المؤمن أن يصبح تائبًا ويمسي تائبًا. فالتوبة والاستغفار دأب الصالحين فقد سبقهم إلى ذلك الأنبياء والمرسلون. فآدم وحواء عليهما السلام: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[الأعراف: ٢٣]، ويونس عليه السلام: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فالانسان معرّض

في حياته إلى النسيان والوقوع في الأخطاء، فكل إبن آدم خطّاء، وخير الخطائين التوابون. وكلما كان إستدراك الخطأ أسرع، كلما كان ذلك أفضل. فإذا أعقب الذنب إستغفارًا سريعًا، كان ذلك أدعى لقبول التوبة.

إن الأرض لتشهد لأي عمل يُرتكب عليها فهي تشمئز من ذنوب العباد، وتطرب فرحًا بالأعمال الصالحة فتشهد لهم بذلك يوم القيامة، فعلى المرء أن يحرص على أن لا يترك أرضًا عمل فيها بمعصية الله إلاّ بعد أن يتبع ذلك بطاعة لله فيها، ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: 114]، وقال ﷺ: **«إتق الله حيثما كُنتَ، وأتبع السيئة الحسَنة تمحُها، وخالِق الناسَ بخُلُق حسَن»** [رواه الترمذي وأبو داود]

وعلى المسلم أن يعلم إن من الذنوب ما تكون عاقبته للمرء خيرًا من الطاعات، فقد قال رسول الله ﷺ: «**إنّ العبدَ ليُذنِب الذنبَ فيدخلَ بهِ الجنّة**»، قيل يارسول الله، كيف ذلك؟ قال: " يكون نُصبَ عينيهِ، تائِبًا منه فارّا، حتى يدخُلَ الجَنّةَ» [رواه أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء]، فالمؤمن ليس ملَكًا ولا نبيًا معصومًا من الخطايا لكنه يقظ يعمل جهده في أن لا يعصي ربه، فإذا أذنب أو أخطأ تاب وأناب فيكون ممن يحبهم الله تعالى.

يحكى عن السري السقطي[١] ﷺ أنه قال: منذ ثلاثين سنة أنا في الاستغفار من قولي الحمد لله مرة. قيل له وكيف ذلك؟ قال وقع ببغداد حريق، فاستقبلني رجل فقال لي نجا حانوتك، فقلت الحمد لله، فمنذ ثلاثين سنة أنا نادم على ما قلت حيث أردت لنفسي خيرًا مما حصل للمسلمين.

٦ـ جهاد النفس

عن عبد الله بن عباس ﷺ قال: ركبت خلف النبي ﷺ يومًا فقال لي:

"**يا غلام إني مُعلّمك كلمات، إحفَظ اللّه يحفَظك، إحفظِ اللّه تجدهُ تِجاهَكَ، وإذا سألتَ فلتسألِ اللّه، وإذا إستعَنتَ فاستعِن باللّه، واعلَم أن الأمّة لو إجتمَعوا على أن ينفعوك لَم ينفعوكَ إلا بشيء قد كتبهُ اللّهُ لكَ، ولو إجتمَعوا على أن يَضّروك لم يضُروك إلا بشيء قد كتبهُ اللّهُ عليكَ، رُفِعَتِ الأقلامُ وجفّتِ الصُحُف**» [واه أحمد والترمذي]

حفظ العبد ربه هو إلتزامُ أوامره وإجتناب نواهيه، وحفظ الله تعالى عبده هدايته ومضاعفة ثوابه وتجنيبه الآثام وتيسير أموره. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ

---

(١) هو أبو الحسن السري بن المغلس السقطي خال الجنيد البغدادي وأستاذه، صحب معروف الكرخي، وكان ورعًا عالمًا بالحديث وعلم التوحيد. وعنه أخذ معظم مشايخ بغداد. توفي بها عام ٢٥١هـ.

سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[العنكبوت:٦٩]. وقال أيضا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرًا﴾ [الطلاق:٤]. وكلما إزداد المؤمن تقوى، كلما إزداد عون الله له وتسديدهُ لخطاهُ، فإذا أحَسَن وجد الثواب سريعًا كإجابة الدعاء أو تيسير المزيد من الصالحات أو وقايته من السيئات، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴾ [الليل:٥-٧].

أما إذا غفل المؤمن التقي فأخطأ، فإن تسديد الله له يكون بتذكره لخطئه بشكل ما، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾[لأعراف:٢٠١] تمام اليقين أن لا يرى المؤمن نافعًا إلا الله ولا ضارًا غيره، ولا مجيبًا يستحق أن يسأل إلاّ هو، ومنه الهداية وحده لا شريك له في كل ذلك، فإذا استسلم العبد لله كان البلاء عنده نعمة لرفع الدرجات وكسب المزيد من الحسنات وتكفير السيئات، وصار الرخاء عنده إختبارًا يخشى أن لا يستطيع أن يؤدي شكره. فالمؤمن قوي اليقين بالله يرى أن الله تعالى فعّال لما يريد وأنه وحده الذي يستحق السؤال ويقدر على الاجابة. وعليه أن يسدد ويقارب ما إستطاع ويعمل الخير ولا يقول إن كان الله كتبني شقيًا فأنا شقي وان كان كتبني سعيدًا فأنا سعيد، فعليه أن يعلم أن التوفيق لعمل الخير هو بشرى من الله أنه من السعداء فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

وقال ﷺ: "**إعملوا واتكلوا، وكُل مُيَسَّر لِما خَلِقَ لَهُ، فَمَن خَلِقَ لِلنعيم فييسرهُ لِلنعيم، وَمَن خَلِقَ لِلجَحيم فييسرهُ لِلجَحيم**» [رواه الستة إلا النسائي وأحمد]

٧ـ الرضا

عن أبي هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ :

«**إن أعظم الجزاء من عِظَم البلاء، وأن اللّه تعالى إذا أحَبَ قومًا إبتلاهُم، فمَن رَضي فلَهُ الرضا وَمَن سَخِطَ فلَهُ السُخط**» [رواه الترمذي وقال حديث حسن]

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: إرض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وإجتنب ما حرم الله عليك تكن من أورع الناس، وأدّ ما إفترض الله عليك تكن من أعبد الناس، ولا تشكُ من هو أرحم بك (الله عزوجل) إلى من لا يرحمك (الناس)، وإستعن بالله تكن من أهل خاصته.

وكتب عمر بن الخطاب ﷺ إلى أبي موسى الأشعري: أما بعد فإن الخير كله في الرضا، فإن إستطعت أن ترضى وإلاّ فاصبر. وقيل للامام الحسين ﷺ إن أبا ذر يقول: الفقر أحب إليّ من الغنى، والسقم أحب إليّ من الصحة، فقال: رحم الله تعالى أبا ذر، أما أنا فأقول من إتّكل على حسن إختيار الله تعالى له لم يتمن غير ما إختاره

الله عزوجل له. وقال أبو علي الدقاق[١]: ليس الرضا أن لا تحس بالبلاء، إنما الرضا أن لا تعترض على الحكم والقضاء. ويكون العبد راضيًا حق الرضا إذا سرّته المصيبة كما سرّته النعمة.

كان ﷺ يدعو: "**أَللّهُمَ إنّي أسألكَ الرضا بعد القضاء**» [رواه أحمد والحاكم]، وواضح أن الواجب على العبد أن يرضى بالقضاء الذي أمر الرضاء به، إذ ليس كل ما هو بقضائه يجوز للعبد أو يجب عليه الرضا به، كالمعاصي ومختلف أنواع محن المسلمين... ويعني ذلك أنه عند وقوع المعصية والمحنة يكون الواجب هو العمل على تغييرها لا الخنوع والرضا بها. ويمكن للعبد أن يستشعر رضاء الله عنه إذا كان هو راضيًا عن ربه في حالات الضراء والسراء على السواء، قال تعالى ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البينة: ٨].

إن عدم الرضا بمصائب الدنيا قد يصحبه الجزع. ومن جزع من مصائب الدنيا تحولت مصيبته في دينه، لأن الجزع نفسه هو مصيبة في الدين، فالمؤمن يرضى عن ربه وعن ما يقضي به ربه، فالخير ما يختاره الله لعبده المؤمن لا ما يحبه هو لنفسه.

٨ـ الصبر

عن صهيب بن سنان ﷺ[٢] قال: قال رسول الله ﷺ :

"**عَجَبًا لأمر المُؤمن إنَ أمرَهُ كلَهُ لهُ خير، وليسَ ذلك لأحَد إلاّ للمُؤمن، إن أصابتهُ سَرّاءُ شَكَرَ فكان خيرًا لهُ وإن أصابَتهُ ضَرّاء صَبَر فكانَ خيرًا لهُ**» [رواه مسلم]

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: ما أصابتني مصيبة إلاّ رأيت أن لله عليّ فيها ثلاث نعم: أن لم تكن المصيبة في ديني، ولم يكن ما هو أكبر منها فدفع الله بها ما هو أعظم منها، والثالثة ماجعل الله فيها من الكفارة لما كنا نتوقاه من سيئات أعمالنا.

---

(١) أبو علي الدقاق من أعلام القرن الرابع الهجري، كان أستاذًا للإمام القشيري.

(٢) صهيب بن سنان بن مالك النمري، أمه من بني مالك. كان أبوه واليًا على الإبلة من جهة كسرى وكانت منازلهم على دجلة من جهة الموصل. سباه الروم وهو صغير فنشأ بينهم فسمي بالرومي. إشتراه رجل من كلب وباعه بمكة فاشتراه عبد الله بن جدعان فأعتقه. أسلم ورسول اللهﷺ في دار الأرقم ولاقى أصناف التعذيب. هاجر إلى المدينة في آخر من هاجر مع علي بن أبي طالب ﷺ ولحق به المشركون فلم يتركوه إلاّ بعد أن دلّهم على ماله كله فأخذوا ماله فلما جاء إلى النبيﷺ قال له " ربح البيع " فأنزل الله تعالى: " **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ** " وشهد المشاهد كلها مع رسول اللهﷺ. أوصى عمر بن الخطاب ﷺ أن يصلي عليه صهيب وأن يصلي بالناس حتى يتم إختيار الخليفة من بعده من بين ستة الشورى. توفي ﷺ سنة ٣٨هـ وهو إبن ٧٠ سنة.

الصبر هو أن يتصرف المرء مع البلاء مثل تصرفه عند العافية. فالله تعالى ما أخذ شيئًا أعطاه للعبد إلا ليصبر فيحبه على ذلك، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وإذا أحب الله عبدًا إختار له ما هو خير له وما تقتضيه مصلحته، فعلى العبد أن يرضى بذلك، وكذلك إذا ما أعطى الله العبد فإن ذلك العطاء هو لأجل الشكر فيجازيه الله تعالى على ذلك الشكر حيث وعد الله: ﴿وَسَنَجۡزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران/١٤٤ وعدة آيات أخرى].

عن الخباب بن الأرت ﷺ[1] قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسّد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال: " **قد كانَ من قبلَكُم يُؤخذُ الرجل فيُحفَرَ لَهُ في ألأرضِ فيُجعَلُ فيها، ثمّ يؤتى بالمنشارِ فيوضَعَ على رأسِهِ فيُجعلُ نصفين ويُمشَطُ بأمشاطِ الحديد ما دون لحمِهِ وعَظمِهِ، ما يصَدّهُ ذلك عن دينهِ، واللّه ليُتِمَّنّ اللّهُ هذا الأمر حتى يسيرَ الراكِبُ من صَنعاءَ إلى حَضرَموت لا يخافُ إلاّ اللّه والذئبَ على غَنَمِه، ولكنكم تستعجلونَ** " [رواه البخاري]. وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: " **ما يُصيبُ المُسلم من وَصَب (الوصب هو المرض) ولا هَمّ ولا حَزَن ولا أذى ولا غَمّ حتى الشوكةُ يُشاكُها إلاّ كَفّرَ اللّهُ بها من خطاياهُ**" [متفق عليه]

والصبر التام هو الثبات مع الله وتلقي بلاءَهُ بالرحب والدعة. قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] فاصبروا بنفوسكم على طاعة الله وصابروا بقلوبكم على البلوى ورابطوا بأسراركم على الشوق إلى الله. فالمؤمن يصبر ويوصي غيره من المؤمنين بالصبر لئلا يكون من الخاسرين: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ لَفِى خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ١-٣]، وكان دعاء رسول الله ﷺ في حالة السراء: "**الحَمدُ لِلّهِ الّذي بنِعمَتِه تتمّ الصالِحاتُ» وفي حالة الضراء: "الحَمدُ لِلّهِ على كُلّ حال»** [رواه الحاكم]

---

(١) الخباب بن الأرتّ بن جندلة التميمي، سبي في الجاهلية فبيع بمكة فكان مولى أم إنمار الخزاعية. كان من السابقين الأولين. قيل أنه سادس من أسلم وأول من أظهر إسلامه فعذب عذابًا شديدًا. شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وهو الذي أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بتغيير موضع نزول المسلمين قبيل معركة بدر. نزل الكوفة وتوفي بها سنة ٣٧هـ عن عمر بلغ ٦٣ سنة وصلى عليه علي بن أبي طالب ﷺ .

٩ـ التوكل

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ :

"لو توَكّلتم على الله حَقَ توَكّلِهِ لَرَزَقَكُم كما يَـرزُقُ الطيرَ تغـدو خِماصًا وتـروحُ بطانًـا» [الترمذي وقال حديث حسن وصححه الحاكم][1]

معناه تذهب في أول النهار ضامرة البطون من الجوع وتعود آخره ممتلئة البطون. والتشبيه بذهاب الطير بحثًا عن قوتها يشير بوضوح إلى أن التوكل على الله حق التوكل هو البحث عن الرزق لا القعود إنتظار أن يأتِ الرزق إلى الانسان كما يظن ذلك بعض الجهال. وفي حديث رسول الله ﷺ مع الأعرابي الذي ترك ناقته بغير عقال ظنًا منه أن ذلك هو التوكل على الله فقال له: "**إعقِل وتوكّل»**[2]. التوكل هو الثقة بما في يد الله واليأس مما في أيدي الناس. قال عبدالله بن المبارك[3]: من أخذ فلسًا من حرام فليس بمتوكل. وسئل أحد الصالحين[4] عن التوكل فقال: إن كان لك عشرة آلآف درهم وعليك دانق دين لا تأمن أن تموت ويبقى دينك في عنقك، ولو كان عليك عشرة آلآف درهم دين من غير أن تجد له وفاء لا تيأس من الله تعالى أن يقضيها عنك. فالتوكل على الله يكون بفقدان الثقة بالمال، فالغني المتوكل يتوكل على الله لا على ماله، والفقير المعدم يثق بالله ويرجو عنايته ويتوكل عليه ولا يفقد الثقة به بسبب عدم توفر المال لديه. قال الله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان:

---

(١) الحاكم النيسابوري المتوفي عام ٤٠٥هـ مؤلف الكتاب المشهور المستدرك على الصحيحين وكتاب معرفة علوم الحديث.

(٢) رواه الترمذي عن أنس والطبراني عن عمرو بن أمية الضمري وإبن خزيمة.
الإمام الطبراني هو أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الشامي اللخمي. إمام حجة حافظ. ينسب إلى مدينة طبرية في حوض الأردن. ولد سنة ٢٦٠هـ وسمع الحديث وعمره ١٣سنة وحدث عن أكثر من ١٠٠٠ شيخ، توفي سنة ٣٦٠هـ.
والإمام إبن خزيمة هو أبو بكر بن إسحاق السلمي النيسابوري، ولد سنة ٢٢٣، كان إمامًا في الحديث، شهد له أهل الفضل بالسبق وإتقان الرواية وقال عنه الذهبي كان فريد عصره، توفي سنة ٣١١هـ.

(٣) عبد الله بن المبارك ولد سنة ١١٨هـ وهو من أعلم أتباع التابعين. كان يقدم أقوال الصحابة والتابعين على مجالسة علماء عصره. كان زاهدًا ورعًا، قال عنه الإمام سفيان الثوري جهدت على أن أداوم ثلاثة أيام في السنة على ما عليه عبد الله بن المبارك فلم أقدر. إجتنب الأمراء وكان يتمثل بالبيتين:

وهل بدّل الدين إلاّ الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها
لقد رتع القوم في جيفة ... يبين لذي العلم أنتانها

(٤) حمدون بن أحمد القصار النيسابوري.

٥٨]. وقـال أيضـا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]. وقـال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾[الطـلاق: ٣]. وروي أن موسـى عليـه السـلام قـال يـارب ممـن الـداء والـدواء؟ فقـال تعـالى منـي، قـال موسـى فمـا يصـنع الأطبـاء، قـال: يـأكلون أرزاقهم ويطيبون نفوس عبادي حتـى يـأتي شـفائي أو قضـائي. فـالمؤمن متوكـل علـى الله آخذ بالأسباب لأن رب الأسباب قد أمره بالأخذ بها لكن قلبه معلق بالله تعالى لا بالأسباب.

١٠ـ القناعة

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

"**قد أفلح من أسلمَ ورُزقَ كفافًا وقنّعهُ اللّهُ بما آتاهُ**» [رواه مسلم]

القناعـة متعلقـة بالرضـا، فـإذا رضـي العبـد عـن ربـه قنـع بمـا قسم الله لـه وقلبـه مطمئن مرتاح لذلك. والقناعة تناقض التكالب علـى الـدنيا سعيًا وراء متاعهـا الزائـل، سواء كان حلالاً أم حرامًا. فالمؤمن يقنع بالحلال ولو كان قليلاً، ويمقت الحرام ولـو كان كثيرًا. وقناعته لا تقعده عن الكسب ولا عن أخذ مـا هـو صـالح مـن غيـره، لكنهـا تناقض الحسد لمن آتاه الله رزقًا وفيرًا، وتناقض تكليف النفس فوق طاقتها طمعًا في المزيد من متاع الدنيا، وتنـاقض الكسـب مـع التفـريط بفـرائض الله وعبادتـه. والقناعـة يحتاجها الغني والفقير وكذلك يحتاجهـا مـن كـان رزقـه كفافًـا بـين الغنـى والفقـر، لأن القناعة في القلب ولا علاقة لها بما في اليد من مال.

ومن قنع بما آتاه الله وجد طمأنينة القلب والسعادة، قال الله تعالى: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[النحل: ٩٧]. قال كثير من أهل التفسير: الحياة الطيبة في الدنيا هي القناعة. وقيل أيضًا في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ﴾ [الانفطار: ١٣]. هو القناعة، وفي قوله تعالى ﴿وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ [الانفطار: ١٤].هو الحرص في الدنيا.

وقـد ذم الله تعـالى التكـاثر فـي متـاع الـدنيا وعدّه مـن الملهيـات: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ٢﴾ [التكاثر/١-٢].

وهكذا يفلح من قنع بما آتاه الله تعالى وكان رزقه كفافًا على قدر حاجته، وسطًا بين الغنى والفقر، وهو أفضل من كليهما، لأن خير الأمور أوسطها، فرب غنـي ألهـاه غناه عن معرفة ربه ورب فقير شغله فقره وإكتساب قوته عن عبادة ربه.

١١ـ الزهد

عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال يا رسول الله دلّني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس فقال :

" **إزهد في الدُنيا يحبَكَ اللّهُ وإزهد فيما عند الناسِ يُحبّك الناس»**

[إبن ماجه وغيره بأسانيد حسنة](١)

ضرب الله تعالى أمثلة عديدة للدنيا ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥] ووصفها بأنها لعب ولهو وأنها متاع الغرور في قوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[الحديد: ٢٠] وحذر منها ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

قال عبد الله بن عمر ﷺ: أخذ رسول الله بمنكبي فقال: "**كن في الدُنيا كأنكَ غريب أو عابرَ سبيل»**، وكان إبن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك [رواه البخاري]. قيل في شرح ذلك أن لا يتعلق القلب بالدنيا، إلاّ كما يتعلق الغريب في غير وطنه حيث لا ينبغي له أن يشتغل بما لا ضرورة له. والدار الآخرة هي وطن المؤمن وليست الدنيا.

قال سفيان الثوري(٢): الزهد في الدنيا ليس بأكل الغليظ ولا بلبس العباء ولكنه قصر الأمل.

يحكى أن شيخًا معروفًا بالزهد كان يسكن في بغداد، أتاه أحد تلامذته مستأذنًا إياه بالسفر في حاجة إلى الشام، فقال له إن هناك رجلاً صالحًا فيها، فإذهب إليه وأقرئه مني السلام وإطلب منه أن يدعو لي، فتخيل التلميذ في ذهنه حال ذلك الرجل أن يكون أزهد من شيخه، فلما ذهب التلميذ إلى الشام، سأل عن الرجل فأرشد إلى

(١) الإمام ابو عبد الله محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجه، ولد سنة٢٠٩هـ وهو صاحب السنن وهو رابع أصحاب السنن. فإن قيل رواه أصحاب السنن فيعني ذلك: الترمذي والنسائي وأبو داود وإبن ماجه، وإن قيل رواه الستة فيعني ذلك الشيخان البخاري ومسلم والأربعة أصحاب السنن. توفي ﷺ سنة ٢٧٣هـ.

(٢) سفيان بن سعيد الثوري كان يسمى أمير المؤمنين في الحديث، ولد سنة9 ٧هـ، كان عالمًا عابدًا زاهدًا وكان مجتهدًا له مذهبه وأتباعه، إلاّ أن مذهبه إندرس بعد مدة. توفي في البصرة سنة ١٦١هـ.

قصر مهيب فعجب أن يكون الرجل المقصود هو صاحب هذا القصر، ولما أستأذن على الرجل وجده محاطًا بالأبهة والخدم، لكنه وجده متواضعًا كريمًا. فلما أبلغه تحيات الشيخ البغدادي، سأله ألم يطلب شيئًا قال بلى طلب أن تدعو له، فرفع الرجل يديه إلى السماء وقال: أللهم أخرج حب الدنيا من قلبه. فازداد التلميذ عجبًا على عجبه، ثم ودّعه عائدًا إلى بغداد. ولما زار شيخه سأله عن سفره وفيما إذا كان قد لقي الرجل الصالح، قال نعم ولكنه إستحيى أن يخبره بمضمون دعوته، فسأله الشيخ وهل طلبت منه أن يدعو لي قال نعم قال فما كانت دعوته قال قال أللهم أخرج حب الدنيا من قلبه، قال صدق والله يا ولدي، لايغرنك مظهر الزهد علي، أترى ما حولي من المتاع، فنظر التلميذ فلم يجد سوى حصير وإبريق ماء ورأى متاعًا باليًا لا يكاد يؤبه له، قال فإن قلبي معلق بهذا المتاع حتى إني لأستيقظ في الليل ألتمس الابريق خشية أن يكون قد سرق.

قال الإمام أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أوجه: ترك الحرام وهو زهد العوام، وترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص، وترك ما يشغل العبد عن الله وهو زهد العارفين. وقال الفضيل بن عياض: جعل الله الشر كله في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا وجعل الخير كله في بيت واحد وجعل مفتاحه الزهد. وقال الحارث المحاسبي [1]: خيار هذه الأمة الذين لا تشغلهم آخرتهم عن دنياهم ولا دنياهم عن آخرتهم، ولذلك كان الإمام علي ﷺ يقول: إعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا. أما الزهد فيما عند الناس فهوعدم الطمع بما في أيديهم، والقناعة بما قسم الله تعالى من رزق وعدم التكالب على الدنيا بجمع الحلال والحرام والشبهة، بل تحرّي ما هو حلال خالص وإن كان قليلاً وقليل من يفعل ذلك اليوم. وعلى المؤمن أن لا ينظر إلى من هو فوقه في الأمور الدنيوية بل ينظر إلى من هو دونه حتى يزداد شكرًا لله تعالى، ولا ينظر في أمور الآخرة إلاّ إلى من هو فوقه كي يُقتدى بهم فيزداد تقوى فقد روى مسلم والترمذي وإبن ماجه وأحمد عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال **«أنظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم »**

١٢ـ الخوف

عن أنس ﷺ قال خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط فقال: "**عُرِضَت عليّ الجَنّةُ والنار فلَم أرَ كاليومِ ولو تعلمونَ ماأعلَمُ لضَحِكتم قليلاً ولَبَكيتم كَثيرًا**»، فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشد منه، غطوا رؤسهم ولهم خنين. [متفق عليه]

(١) الحارث أو الحرث بن أسد المحاسبي من أهل البصرة، كان عالمًا ورعًا، مات أبوه وترك له ٧٠ ألف درهم فلم يأخذ منها شيئًا ورعًا مع شدة حاجته للمال لأن أباه كان قدريًا. توفي ببغداد سنة ٢٧٣هـ.

الخنين: هو البكاء مع غنة وانتشاق الصوت من الأنف.

المؤمن يخاف أن يؤاخذه الله تعالى بأخطائه وتقصيراته، ولهذا فهو يخاف سوء الخاتمة فهو يدعوه: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾[آل عمران:٨]. فخشية الله إذا دخلت قلب المؤمن كانت له رقيبًا تنبهه كلما إشتط أو غفل. وقد دعى الله تعالى عباده إلى خشيته فقال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران: ١٧٥] وقال: ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، وكل تلك الخشية مع حسن العمل، قالت عائشة رضي الله عنها: قلت يا رسول الله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أهو الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر قال: "**لا ولكنّ الرَجُلَ يصومُ ويُصلّي ويتصَدَق ويَخافُ أن لا يُقبَلَ منهُ**» [رواه الترمذي]. قال الإمام علي ﷺ: لا تخف إلاّ ذنبك، ولاترجُ إلاّ ربّك، ولا يستحي من يسأل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم.

فالوجل من الله والخوف منه دليل معرفة العبد بالله وليس دليل سوء السريرة، خاصة وأن العبد لا يدري ماذا قد كتب الله عليه أن يرى في مستقبل حياته. فكم من امرىء قد عبد الله سنين طوال ثم غوى فصار إلى النار كما يوضح ذلك قوله ﷺ: "**إن الرجلَ ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار، وإنّ الرجلَ ليعمل الزمنَ الطويل بعمل أهل النار ثم يختم عمله بعمل أهل الجنّة**» [رواه مسلم]، فالمؤمن يخاف من سوء الخاتمة ويدعو الله أن يمنّ عليه بحسن الخاتمة، لأن الأعمال بخواتيمها. كما يخاف كذلك من الاستدراج، فحين يرى علامات التوفيق والرخاء والطمأنينة مقبلة عليه، عليه أن لا يغتر بها ويركن إليها بل عليه أن يكون يقظًا على الدوام، لأن الشيطان يحاول إغواءه كلما فشل في طريق سلك طريقًا آخر. والشيطان يسلك مع المؤمن قوي الايمان سبيلاً غير السبيل الذي يسلكه مع ضعيف الايمان. فالمؤمن الصادق لا يفكر بشرب الخمر، لذا لا يسلك معه الشيطان سبيل تزيين شرب الخمر، لكنه يمكن مثلاً أن يغويه بالغرور بأنه رجل صالح وقد ضمن دخول الجنة فعليه أن يحافظ على ما هو عليه ولا يبحث عن المزيد من العمل الصالح. إن على المؤمن أن يخاف ذنوبه التي يمكن أن تكون بداياتها بسيطة، لكنها قد تؤدي إلى غضب الله وعقابه ولا يغتر بسابق أعماله، فرب زلة واحدة محقت عبادة مدة طويلة، فهو لا يأمن مكر الله ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩]

١٣ـ الرجاء

عن أبي هريرة ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**جعَلَ اللّهُ الرَحمَةَ مائةَ جُزء فأمسَكَ عندَهُ تسعَةَ وتِسعينَ، وأنزَلَ في الأرض جُزءًا واحدًا، فمِن ذلكَ الجُزءِ يتراحَمُ الخَلائِقُ حتى ترفعُ الدابّة حافِرَها عن وَلَدِها خَشيةَ أن تصيبَهُ**» [متفق عليه]

لقد خبأ الله تعالى تسعة وتسعين بالمائة من رحمته يرحم بها عباده يوم القيامة. فحسن الظن بالله تعالى مطلوب على الدوام ما لم يتخذ المرء من ذلك ذريعة لكي يستحل المحارم ويرتكب الآثام، وإذا ما وعظه أحد أو نهاه عن ذلك قال إن الله غفور رحيم. قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]. والرجال بحسب أعمالهم ثلاثة: رجُل عمل حسنة فهو يرجو قبولها، ورجل عمل سيئة ثم تاب فهو يرجو المغفرة، والثالث الرجل الكاذب يتمادى في الذنوب ويقول أرجو المغفرة.

قال أحد أصحاب الإمام مالك بن أنس[١]: دخلنا عليه في العشية التي قبض فيها فقلنا يا أبا عبد الله كيف تجدك ؟ قال ما أدري ما أقول لكم، غير أنكم ستعاينون من عفو الله تعالى ما لم يكن لكم في حساب، ثم ما برحنا حتى أغمضناه ﷺ. وهكذا تكون الثقة بالله تعالى وخاصة في تلك اللحظات. ورؤي مالك بن دينار في المنام فقيل له ما فعل الله بك ؟ فقال قدمت على ربي عزوجل بذنوب كثيرة محاهًا عني حسن ظني به تعالى.

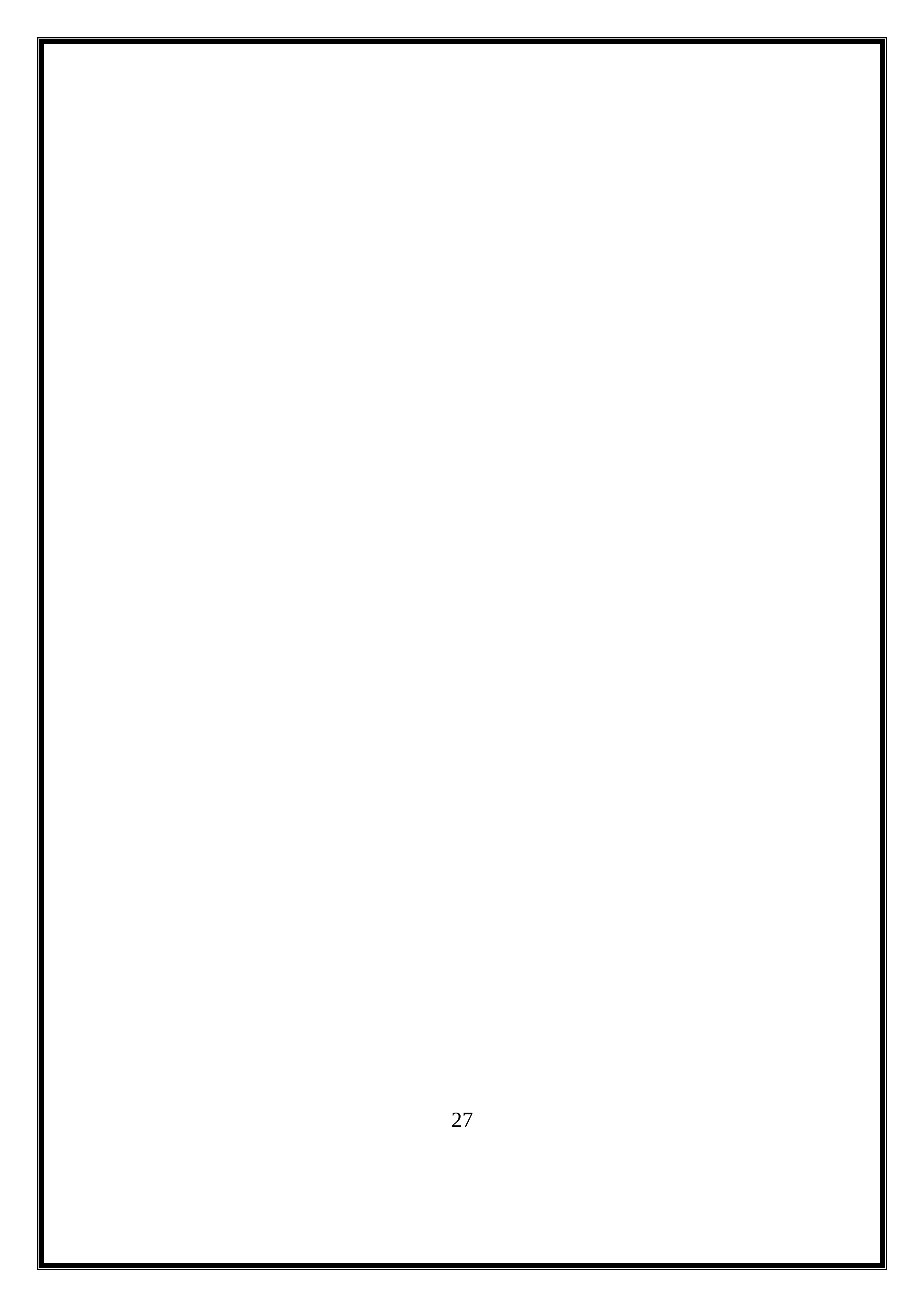
عن عائشة رضي الله عنها قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**إنّ اللّهَ تعالى ليضحَكُ من يأس العبادِ وقنوطهم وقرب الرّحمَةِ منهُم**» [رواه أحمد].

هذا وإن اليأس من رحمة الله تعالى من أكبر الذنوب، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف/٨٧].

إن الموازنة بين الخوف والرجاء مطلوبة على الدوام، فالخوف يردع عن إرتكاب الذنوب والرجاء يشجع الانسان على التوبة والاقلاع عن الذنوب. وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول لو نودي يوم القيامة أنه لن يدخل الجنة إلاّ واحد لرجوت أن أكون أنا، ولو نودي أنه لن يدخل النار إلاّ واحد لخشيت أن أكون أنا. فالمؤمن قبل إرتكاب ذنب يخشى الله ويخافه من سوء العاقبة، أما إذا ارتكب ذنبًا فهو يسرع في التوبة ويرجو أن يغفر الله له ويلح في الدعاء ويوقن بالاجابة ويجعل الذنب نصب عينيه يستغفر الله منه كلما تذكره ويرجو رحمة ربه فإنها قريب من المحسنين.

---

(١) هو بكر بن سليم الصواف.



الباب الثاني
الاستقامة في الأصول

١٤ـ التمسك بكتاب الله

عن أبي موسى الغافقي قال إن آخر ما عهد إلينا رسول الله ﷺ أنه قال: "**عليكم بكِتابِ اللّه، وستَرجعونَ إلى قوم يُحِبّون الحديثَ عنّي، فمَن قال ما لَم أقُل فلِيتبَوأ مَقعَدَهُ مِنَ النارِ، وَمَن حَفِظَ عَنّي شيئًا فلِيُحَدّثهُ»** [رواه أحمد]

كان من آخر ما أوصى به رسول الله أصحابه التمسك بكتاب الله تعالى ففيه خبر الأمم السالفة وفيه التحذير من غوائل ما سيقع وفيه حكم ما بيننا وفيه الترغيب والترهيب وفيه الدعوة إلى مكارم الأخلاق وفيه الأحكام لكل الأزمنة والأمكنة فهو كلام رب العالمين الذي يعلم ما يصلح للناس في دنياهم وأخراهم. فالقرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع الاسلامي وإليه يرجع المسلمون كلما أشكل عليهم أمر من أمور دنياهم أو أخراهم. والمؤمن ينظر إلى القرآن صاحبًا ومؤنسًا، يقرأه على الدوام ويتفكر في عبره وأمثاله ويتعلم فقهه وأحكامه ويطبق أوامره ويجتنب نواهيه وهو باق كما أنزله الله على نبيه لأن الله تعالى تعهد بحفظه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

إن من القرآن ما هو واضح المعنى لكل من يفهم اللغة العربية من عامة الناس وعلمائهم. فالمؤمن الذي يتكلم العربية مهما كان مستوى علمه يستطيع أن يفهم من آيات القرآن بعض أحكامها فيطيع الأوامر وينتهي عن النواهي. ومن الآيات ما يجب الرجوع فيه إلى التفاسير المعتمدة وإلى أولي العلم لفهم المعنى أو الأحكام المبنية على تلك الآيات. والمؤمن بالإضافة إلى ذلك يعتني بالقرآن ظاهريًا كتطبيق قواعد التجويد عند تلاوته. ويزداد علمًا فيما يخدم فهم القرآن من علوم اللغة العربية وعلم القراآت. فالقرآن حبل الله الممدود بين الله وعباده ومن أحب الله بصدق، أحب كتابه وإحترمه إحترامًا عميقًا يفوق بكثير إحترام أي كتاب آخر، ثم تظهر آثار هذا الاحترام بشكل عملي واضح على أعماله وتصرفاته وأخلاقه ومعاملته، وذلك ركن عظيم من أركان الاستقامة في المنهج الذي على المؤمن أن يتخذه ويسير عليه

١٥ـ إتباع سنة رسول الله ﷺ

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :

«**كُل أمتي يَدخلونَ الجَنّة إلاّ مَن أبى**»، قيل: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: "**من أطاعَني دَخَل الجنّة، ومن عصاني فقد أبى**» [رواه البخاري].

إتباع السنة الذي يشير إليه هذا الحديث، ثابت بالقرآن: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١].

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥]، فالسنة مفسرة لأحكام القرآن، وتتضمن فروضًا غير مبينة بالقرآن لا يمكن الاستغناء عنها، ولا يجادل لتقليل أهميتها إلاّ منافق أو كافر. وعلى المسلم أن يتعلم السنة المطهرة لأنها تفصّل ما ورد مجملاً في القرآن وتبين التطبيق العملي للأحكام والأخلاق. فهي المصدر الثاني للتشريع الاسلامي.

والمسلم يهرع إلى رسول الله مستفتيًا سنته كلما طرأ له أمر ذي بال إذ أن حياته المعنوية قائمة بين المسلمين متمثلة بكتب السنة. وعليه أن يرضى بعد ذلك بحكم رسول الله الوارد في سنته. وهو إن لم يفعل ذلك فهو بحاجة إلى تجديد إيمانه، قال الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: 65].

ويتبع سنة رسول الله ﷺ في الحكم سنة خلفائه من بعده، حيث قال ﷺ: "**عليكم بسُنّتي وَسُنّةِ الخُلَفاءِ الراشِدينَ المَهديينَ مِن بَعدي عَضّوا عَليها بالنواجذِ**» [رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح]، فما ورد من تفسير أو حكم أو قضاء عن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم، هو مفسر للسنة ومقدم على إجتهاد من جاء بعدهم، إلاّ إذا تغيرت الظروف واحتاج المسلمون إلى إجتهاد جديد.

وعلى المسلم أن يتعلم الحديث ويحفظ ما تيسر منه ويعمل بما تعلَّم ويعلِّمه غيره ويعتبره دليل عمل تفصيلي بعد القرآن. وإذا سمع أو قرأ الأمر والنهي من رسول الله ﷺ، فليس له أن يقَدِّم على ذلك رأيًا لنفسه أو لأحد من البشر كائنًا من كان، إلاّ أن يعلم حديثًا آخر يخصص الأمر أو أكثر إنطباقًا على تلك الواقعة. وعلى هذا النهج سار الأئمة المجتهدون رضوان الله عليهم كافة، فكلهم ورد عنهم أنه إن صح الحديث أخذوا به ولم يقدموا عليه رأيًا لهم أو إجتهادًا لبشر يخطئ ويصيب. لكن هناك حالات

دقيقة من علل في بعض الأحاديث أو إنقطاع سند أو ضعف أو معنى خفي لا يدركه إلاّ المختصون من العلماء، وهذا هو صلب الفقه. فإن اؤتي المرء قسطًا من هذا العلم توصل بنفسه إلى المنهل الصافي وإلاّ أخذ عن الفقهاء ما قرروه من فهم.

١٦ ـ الاجتهاد

عن معاذ بن جبل ﷺ أن النبي ﷺ لما بعثه إلى اليمن قال له: "**كيفَ تقضي؟** "قال أقضي بكتاب الله، قال " **فإن لم يكُن في كِتابِ الله؟** "قال فبسنة رسول الله ﷺ، قال: "**فإن لَم يَكُن في سُنّة رسول الله** "قال أجتهد رأيي ولا آلو، قال: "**الحَمدُ للّه الذي وَفّقَ رسولَ رسولِ اللّهِ لما يُرضي رسولَهُ**» [رواه الإمام أحمد]

المؤمن قد سَلّم أموره كُلّها بيد الله فما هو إلاّ عبد ضعيف أمام عظمة الله الواحد الأحد، فهو يتلقى التشريع من الله ورسوله، ولا يفضل عليهما لا رأيًا إستحسنه عقله ولا فكرة لاقت هوى في نفسه إبتغاء مصلحة دنيوية زائلة ما دامت لا تتفق مع أوامر الله عز وجل أو أوامر رسوله ﷺ. أما إذا كان الامر غير وارد في الكتاب وفي السنة المطهرة بعد البحث والاستقصاء ممن إستكمل متطلبات الاجتهاد من علم وتقوى، فباب الاجتهاد واسع. والفهم من الكتاب والسنة متفاوت بين العلماء ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، فالفهم الاجتهادي يحتاج إلى تقوى وصدق مع الله تعالى. ولا يظنن ظان أن هذا الحديث مقتصر على القضاء بين الناس أو المسائل العويصة في الفقه، فكل مسلم يمارس في حياته اليومية أمورًا تفاصيلها غير وارد في الكتاب أو السنة وهو يقرر فيها حسب رأيه، وهو نوع من الاجتهاد وهو إجتهاد شرعي إن كان مستندًا إلى الكتاب والسنة وهو مثاب عليه إن كانت نيته صادقة. فحينما تمر بالمسلم واقعة يحتاج فيها إلى قرار سواء كان ذلك في أمر من أمور الدين أو الدنيا فإنه يبحث سريعًا بنفسه أو بسؤال العلماء الأتقياء هل في ذلك الأمر حكم في القرآن فإن لم يجد ففي السنة، فإن لم يجد إجتهد رأيه بما آتاه الله تعالى من عقل وإستنباط بأفضل ما يستطيع قياسًا على ما يعلم مما ورد في الكتاب والسنة ثم يتكل بعد ذلك على الله تعالى وينفذ ذلك.

لقد فصّل الفقهاء المجتهدون في أصول الفقه ووضعوا لهذه الأمة تراثًا فقهيًا تباهي به الأمم بحق. ولهذه ألأصول الثلاثة (الكتاب والسنة والاجتهاد) ترجع الأصول الأخرى، رغم كونها تعتبر أحيانًا أصولاً مستقلة. فالقياس ما هو إلا نوع من الاجتهاد وعمل أهل المدينة (عند الإمام مالك) ما هو إلا سُنة (لقرب عهده من زمن الرسول ﷺ)، والاجماع هو أعلى درجات الاجتهاد لأنه إجتهاد مجتهدي الأمة مجتمعين. وهكذا تجد أصول هذا الدين راسخة وواضحة في الوقت عينه، وما على

المسلمين سوى الأخذ من هذا المعين الصافي، كما قال ﷺ: **«تركتكم على المِحَجَة البيضاء ليلُها كنهارِها، لا يضل عنا إلاّ زائغ»**

[رواه إبن ماجة]

١٧ـ التزام الجماعة

عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يُدركني، فقلت يا رسول الله: إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: "**نعَم**»، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير، قال: " **نعَم وفيه دخَن** "، قلتُ: وما دخنه؟ قال: "**قوم يَهدون بغيرِ هديي، تعرفُ وَتنكِرُ**»، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: "**نعَم، دُعاة على أبواب جهنم، مَن أجابَهُم إليها قذفوهُ فيها**»، قال يا رسول الله صِفهُم لنا، قال: "**هُم مِن جلدَتِنا ويَتكَلَّمون بألسِنَتِنا**»، قلت: فما تأمُرني إن أدركني ذلك، قال: " **تلزم جماعة المُسلِمين وإمامَهم**»، قلت: فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام، قال: **«فاعتزل تلك الفِرَق كُلّها، ولو أن تعَضّ بأصلِ شَجَرة حتى يُدرِكَكَ الموتَ وأنتَ على ذلك»** [رواه الثلاثة]

قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢]، ولا بد للمسلم أن يتعاون مع غيره من المسلمين في أعمال الخير. أما المنفرد عن جماعة المسلمين حتى ولو كان على علم وتقوى، فلا يستطيع أن يقوم لا بأمور دينه ولا بأمور دنياه كما يجب. فمثلا الصلاة جماعة أفضل بمرات كثيرة من صلاة المنفرد، كما ورد في حديث عن إبن عمر "**صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة**» [متفق عليه]، ومن الصلاة ما لا يؤدى إلاّ جماعة، كصلاة الجمعة. وفي حديث آخر قال ﷺ: "**يَدُ الله على الجَماعةِ وإنّما تأكُلُ الذئبُ من الغنَمِ القاصية**» [رواه الترمذي]، فمن إبتعد عن جماعة المسلمين كان فريسة للأفكار الشاذة أو الغلوّ في الدين أو الضلال.

هذا الحديث الشريف لا يكتفي بوصف الداء الذي تنبأ رسول الله ﷺ بوقوعه بين المسلمين ووقع فعلاً بعد وفاته بأزمنة طويلة، بل يصف الدواء وما على المؤمن أن يفعله في تلك الظروف. فإعتزال الفرق المخالفة لما أنزل الله فريضة حتى ولو إتبع تلك الفرق أكثر الناس، فليس الحقّ دائمًا مع الكثرة، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣]. والعلاج في حالة عدم وجود جماعة للمسلمين، وهي حالة من الحالات الشاذة، هو ليس متابعة الأكثرية الخاطئة، بل

الاعتزال لتلك الفرق الضالّة جميعها. وقد يقول قائل وكيف للانسان أن يعيش منفردا ومن أين سيكتسب قوته؟ والجواب هو أن المسلم لم يؤمر بمقاطعة الناس ولا المعيشة في الصحاري والقفار، ولكنه إعتزال الناس في كل ما يسخط الله تعالى ومصاحبتهم في أمور معيشته ودنياه مصاحبة لا تؤثر على أمور دينه. فرسول الله ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم عاشوا أكثر من عشر سنين في مكة قبل الهجرة وهم معتزلون للكفر وأهله رغم أن بعضهم كان يأكل ويشرب في بيتٍ كل من حولهم فيه من الكافرين بل والمغالين في كفرهم وإيذائهم للمسلمين.

وثمة أمر آخر، هو إجماع الأمة، فالأمة الاسلامية لا تجتمع إلاّ على الخير والصلاح كما ورد في حديث "**إنّ أمتي لا تجتمعُ على ضلالة**» [رواه إبن ماجة]، ولذلك فكلما وجد المسلم الأمة قد إجتمعت على أمر من أمور الدين أو الدنيا فعليه التمسكَ به، ويتمثل إجماع الأمة بصفوة علمائها أوالصالحين من رؤسائها وأمرائها. قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩]، وأولي الأمر هم العلماء والأمراء وإجماع العلماء قد حصل في أمور فقهية وإجتهادية عديدة في السابق فكيف بهم اليوم وقد تقدمت وسائل الاتصال كثيرًا. وقد توعد الله من يخالف جماعة المسلمين بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ [النساء/١١٥].

١٨ـ عدم إطاعة مخلوق في معصية الخالق

عن علي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "**لا طاعة لِمَخلوق في مَعصِيَةِ اللّهِ تبارك وتعالى**» [رواه مسلم والنسائي وأبو داود وابن ماجه وأحمد واللفظ له]

أعطى الله تعالى المثال الواضح والواقعي لعدم إطاعة أوامر الناس إن كانت مخالفة لأوامر الله تعالى، حتى ولو كان الآمر أقرب الناس، كالوالدين: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [لقمان: ١٥]. وما قصة الصحابي الجليل مصعب بن عمير ﷺ مع أمه ببعيدة، حيث حلفت أن لا تأكل أو تشرب حتى يترك دينه، فقال لها قولة الحق: لو كانت لك مائة نفس ونفس فخرجت واحدة بعد الأخرى، ما تركت ذلك. فالمؤمن يؤدي حقوق الناس مؤمنهم وكافرهم

ويداري سفهاءهم لكنه لا يطيعهم فيما ليس لله فيه رضًا ولا يداهن على حساب دينه. ويستثنى من ذلك الإكراه الذي هو موضوع الحديث الآتي.

وفي كتاب الله محاورة بين أهل جهنم، السادة المطاعون والأتباع: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف/ ٣٨- ٣٩].

وعلى هذا فإن الطريق إلى رضوان الله واضحة جلية هي في طاعة أوامره لأنه هو الإله. أما البشر الذين يأمرون وينهون، حتى لو تجبروا وطغوا وأخافوا الناس وأرهبوهم فهم زائلون ولا طاعة لهم إن كانت أوامرهم مخالفة لأوامر الله تعالى.

١٩ـ تقدير الرخص بقدرها

عن أبي ذر الغفاري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "**إن اللهَ تجاوزَ عن أمّتي الخَطأَ والنِسيانَ وما إستكرِهوا عليه**». [رواه إبن ماجه والطبراني عن إبن عباس وثوبان]

المسلم يدعو ربه: "**رَبَّنَا لاَ تؤَاخِذنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأنَا**» [البقرة: ٢٨٦]، فيستجيب الله تعالى للصادقين في دعائهم. فقد جبل إبن آدم على النسيان: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾ [طه/١١٥]. أما الإصرار على الخطإ فهو ذنب مستقل لا علاقة له بالخطا. قال الله تعالى في مدح المؤمنين: ﴿إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف/٢٠١]، وقال ﷺ: " **كُلّ إبن آدمَ خطّاء، وَخيرُ الخَطّائين التوابون**» [رواه الترمذي وأحمد والحاكم]

أما الإكراه، فيقدر بحسب الظروف. قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]. وقد يتوسّع بعض المسلمين في تعدّي حدود ما يدخل تحت حكم الإكراه، فتراهم يقولون عند إرتكاب بعض الآثام أنهم مجبرون في حين أنه ليس هناك من أجبرهم حقيقة. إن من الإكراه ما هو بدني وما هو معنوي، فحد الإكراه البدني يعتمد على قابلية المرء البدنية لتحمل ذلك. قيل أن عبد الله بن مسعود ﷺ كان نحيف البنية قصير القامة جدًا، فكان يقول لو أكرهني شخص بضربي سوطين أو أقول ما يريد مني قوله، لقلت مثل ما أراد. أما عمر بن الخطاب ﷺ فقد

كان قوي البنية يخافه الشجعان، لذلك وبخلاف معظم الصحابة الذين هاجروا من مكة إلى المدينة سرًا، وقف عمر بعد أن طاف حول الكعبة سبعًا وعلى ملأ من سادة قريش قال: إنني مهاجر عند الصباح، فمن أراد أن تثكله أمه فليلحق بي ببطن وادي كذا. فالإكراه الذي إضطر المهاجرين إلى التخفي والهجرة سرًا لم يكن إكراهًا كافيًا لعمر بحيث يتبع الأسلوب نفسه. وأساس التقية هو هذا. قال الله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران:٢٨]، فإتقاء أذى المتجبرين والطاغين خوفًا من بطشهم جائز لضعفاء المسلمين كرخصة، لكن التوسع في التقية بحيث يعيش المرء بوجهين، وجه مع من يأمنهم، ووجه مع من يخافهم ولو خوفًا بسيطًا هو إستخدام للرخصة الخاصة في غير موضعها وقد يؤدي ذلك إلى إقتراب المسلم من تصرف المنافقين والعياذ بالله. ومثال الإكراه المعنوي التعذيب النفسي والإهانات على ملأ من الناس، وهي مختلفة الوطأة بين الناس بحسب أحوالهم أيضًا. أما الأخذ بالعزيمة وعدم الخضوع للإكراه مهما كانت النتائج من أذى دنيوي فهو دأب المجاهدين الصادقين السابقين بالخيرات. قال ﷺ: "**سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله**» [رواه الحاكم وصححه]

ولقد أجمل الإمام الشافعي النتائج المترتبة على الإكراه بقاعدة فقهية في غاية الإيجاز وتنطبق في حالات الإكراه والمشقة والمرض والضعف وغيرها، وهي: - كلما ضاق الأمر اتسع-، فكلما إستجدت ظروف صعبة طارئة أو جديدة تستدعي معالجة على غير العادة، كلما كانت الشريعة سمحة بحيث تزداد الحدود التي بإمكان المسلم أن يتحرك فيها ويكون معذورًا على ذلك، وينطبق هذا الأمر على الإكراه وعلى المشاق والظروف الطارئة الأخرى. ويستطيع إدراك ذلك من أوتي نصيبًا من فهم كتاب الله وسنة رسوله وحظًا من الفقه وعند ذلك يمكن أن يفتي لغيره من الناس.

٢٠ـ التيسير على المسلمين

عن أنس بن مالك ﷺ قال قال رسول الله ﷺ :

"**يَسِّروا ولا تعَسِّروا وبَشِّروا ولا تنفّروا**» [رواه البخاري ومسلم وأحمد والنسائي]

الدين يسر، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾[الحج: ٧٨]، ولذلك شرع الله بجانب الأحكام الأصلية، أحكامًا مخففة للتيسير في الظروف الطارئة، كقصر الصلاة في السفر والإفطار في رمضان للمريض والمسافر والتيمم لمن لم يجد الماء، وغير ذلك.

وكان رسول الله ﷺ يحب التيسير، «**وما خيِّر بين أمرين إلاَّ إختار أيسَرَهما ما لم يكن إثمًا"**» [رواه البخاري]. و كان سهلاً إذا باع، سهلاً إذا إشترى، سهلاً إذا قضى،

سهلاً إذا إقتضى كما ورد في البخاري "**رحم الله عبدًا سمحًا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى** ". وأمرهُ صلى الله عليه أمته بالتيسير في هذا الحديث، وسيلة تربوية فائقة في هذا الدين إختطّت في القرآن الكريم في منهج يقضي بتدرج الأحكام. وهذا الأسلوب هو ما يجب على المسلم إتباعه في تربية الأطفال، حيث يجب التيسير، كلما كان ذلك ممكنًا. والأسلوب نفسه يجب إتباعه مع قريبي العهد بالإسلام أو أصحاب الأعذار والحرف الشاقة. فالرخصة ما شُرِعت إلا رأفة من الله بعباده، فليس لله حاجة في تحمل المرء مشقة لا يطيقها فليس هناك عبادة مقصودها المشقة والحرج. إلاّ أن ذلك لا يعني إتباع الرخص في محلِّها وغير محلها. فرسول الله ﷺ كان يقوم بالليل حتى تورمت قدماه، ولو إعتمد على إخبار الله له بغفران ما تقدم من ذنبه وما تأخر كعذر لترك قيام الليل لما قامه. وهنا يخطئ بعض الناس في الاستفسار عن مسألة معينة في المذاهب الفقهية المختلفة لكي يأخذوا بأيسرها على الدوام معتبرين أن ذلك هو المقصود من الأمر بالتيسير، متناسين الظروف المحيطة بتلك الرخصة والحدود المسموح بها وعلاقتها مع غيرها من الأحكام. لذلك فالتيسير ليس معناه التحايل على الأحكام باتباع البدائل السهلة على الدوام، وإنما أعتبار الحكم المرخص به حكمًا يجوز الأخذ به إن كان هناك عسر أو مشقة أو ضيق في الوقت أو إكراه أو مًا شابه ذلك.

من الأمثلة الواضحة على التيسير أن لايطيل الإمام القراءة إن كان بين المصلين شيوخ أو مرضى أو أصحاب حاجات. ولكن له أن يطيل صلاته في جوف الليل. فالصلاة بقدر تحمل أضعف الناس بين الجماعة هي الصلاة الأفضل. وكذلك تتحدد سرعة مشي الركب بسرعة أضعف القوم، لذلك قيل قائد الركب أضعفهم.

إن خير الأمور أوسطهًا. فالأخذ بالعزيمة لمن لا يستطيعها يولد نفورًا وكرهًا للدين! والأخذ بالرخص لمن أوتي قوة وقابلية يولد فتورًا وضعفًا في الإيمان. وكان رسول الله ﷺ يتفرس في وجه السائل فيجيبه أو ينصحه بحسب طاقته، فيجيب الضعيف غير ما يجيب القوي، ويجيب حديث العهد بالإسلام غير ما يجيب السابقين الأولين. إن للشطط والغلو مظاهر عديدة، منها التناوب بين فترات الفتور في العبادة والغلو فيها فترى المرء تاركًا للصلاة مسرفًا على نفسه حتى إذا جاء رمضان لزم المسجد وهجر الناس أو عبد الله بغير ما فرض الله تعالى أو سن رسوله ﷺ كصيام زكريا أو صلاة مائة ركعة في يوم مخصوص، فإذا ما خرج رمضان أو ملّ من العبادة التي فرضها على نفسه عاد لسابق عهده، فترك فرائض الله وسنن رسوله وتلك هي الغواية.

إن في العبّاد المتعصبين عن غير علم من أفراد الأمة شبه بالنصارى الذين ابتدعوا الرهبانية التى لم يكتبها الله عليهم، أما ذوي العلم غير المتقين من هذه الأمة ففيهم شبه باليهود ألذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وضرب الله مثلهم: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ [الجمعة: ٥]. والمؤمن يدعو الله تعالى أن لا يكون من هؤلاء ولا

من هؤلاء: " ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦-٧] وفي السنة العديد من الأمثلة على الحث على تخير أوسط الأمور والنهي عن التعصب والغلو. فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: "**هلَكَ المُتنطِّعونَ**» [رواه مسلم]. قالها ثلاثا، والمتنطعون هم المتشددون في غير موضع التشديد.

٢١ـ عدم إتباع الأغلبية المسيئة

عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكونوا إمَّعَة تقولوا إن أحسَنَ النَّاسُ أحسَنّا وإن ظلَموا ظلَمنا ولكن وَطِّنوا أنفُسَكُم إن أحسَنَ النَّاسُ أن تحسِنوا وإن أساؤوا أن لا تظلِموا» [رواه الترمذي وقال حديث حسن]

الامعة هو الذي لا رأي له فهو يتابع الأكثرية أو كل أحد سواه والمؤمن قوي في إيمانه، فهو يستحي من الله لكن ليس من الحياء متابعة الناس في الشر. ويعتمد ذلك على عمق الإيمان، فالمؤمن القوي الإيمان لا يتابع على الباطل أحدًا ولو خالف الناس كلهم وحده، أما من كان أضعف من ذلك فربما جامل الناس، وعليه عند ذلك أن يتهم إيمانه، ويستغفر ربه ويتوب إليه.

إن المؤمن قائد في طريق الحق وهو متبوع بالحق غير تابع للباطل. وطريق الاستقامة يحتم عليه أن يميز بين الحق والباطل، ويفرض شخصيته التي قوامها العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ويخالف من خالفهما ولا يخاف في الله لومة لائم. فكم من سنة أميتت أحياها الله على يد فرد مسلم واحد بإصراره على مخالفة كل من كان حوله. وكم من عمل صالح مستمر الفائدة كان أساسه ثبات رجل واحد. لا شك بأن مخالفة الغالبية قد تسبب للمرء صعوبات قد لا يلقاها غيره، لكن ذلك من الجهاد إن كانت النية خالصة لله، لا لحب الظهور جريًا على قاعدة -خالف تُعرف-. فمن خالف لكي يعرف فهو مرائي كما سيمر بنا. وعلى المؤمن أن يتحمل ما يحصل له من أذى في سبيل الله، إلاّ أن عليه أن يعرف قدر نفسه فلا يغالي فيشتَط في المخالفة في أمور ليست ذات بال بحيث يرتكب آثامًا أكبر من الطاعة التي قام بها، فكل ما زاد عن حدّه إنقلب إلى ضده. أما في الأمور ذات العلاقة بالمبادئ الأساسية فعلى المؤمن أن يكون على أشد الصلابة، ولتكن له في رسول الله أسوة حسنة حين ساومه الكفار على التخلي عن دعوته فقال قولته المشهورة لعمه أبي طالب: "والله يا عَمّ، لو وضعوا الشمسَ في يَميني والقَمرَ في يَساري على أن أترُك هذا الأمرَ ما ترَكتهُ حتى يُظهِرَهُ اللهُ أو أهلِكَ دونَهُ » [سيرة إبن هشام]

٢٢ـإجتناب البدع

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ :

"مَن أحدَثَ في أمرِنا هذا ما ليسَ منهُ فهو ردٌ». [متفق عليه]

قـال الله تعـالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة: ٣]. وهكذا فـإن دين الله تعالى قد إكتمل قبيل وفـاة رسول الله ﷺ، وهو ليس بحاجة إلى إضافة أو تعديل لأن الإضافة تحتاجها المبادئ الناقصة من صنع بني آدم. أما دين الله فقد إحتوى ما يحتاجه بنو آدم إلى يوم القيامة.

لقد أشكل هذا الحديث وغيره من الأحاديث حول البدع على بعض العلماء، حيث وجدوا أن الأمم الأخرى لديها علوم لم يكن المسلمون على معرفة بها، ولئلا يدخل إقتباس العلوم تحت طائلة النهي عن الاحداث في الدين، قالوا إن البدع تدخل في العبادات فقط. أما في غير العبادات فالاحداث جائز. والحق أن الدين (أو ما ورد في هذا الحديث من لفظة: أمرنا هذا) يشمل العبادات والعادات والمعاملات والعقائد وكل شؤون الحياة. فالمسلم يدعو ربه في كل صلاة: "**إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**» ولا فرق بين الصلاة وبين اكتساب الرزق والعمل أو الراحة، فما دام كل ذلك من الحياة فهو لله. أما إقتباس العلوم من الأمم الأخرى فهو ليس من ألاحداث في الدين بل هو من الأمور التي حث عليها الشرع وإعتبرها من فروض الكفايات. وقد أوضح ذلك بعض العلماء بتقسيم الأمور المحدثة إلى أقسام متباينة، فمن ألأمور المستجدة ما هو فرض ومنها ما هو مستحب ومنها ما هو جائز ومنها ما هو مكروه ومنها ما هو حرام[١]. والبدع المشار إليها هنا بلفظ الاحداث في الدين ما ليس منه: ما يقع تحت المكروه أو الحرام كتقليد الأجانب في ما ورد الشرع بخلافه وإستحداث تقاليد جديدة مخالفة للشرع مستندة إلى أسس عصبية أو عنصرية أو طائفية ما أنزل الله بها من سلطان.

إن إستقراء الأوامر التي وردت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تعطي الفقيه بل وأحيانًا المؤمن التقي الذي لديه قسط من العلم، المقدرة على التمييز بين ما يتفق مع الدين وما يخالفه من الأمور المحدثة وذلك في مختلف جوانب الحياة من معاملات وعادات. أما حينما يتعلق الأمر بجانب العبادات، فمن العبادات ما هو توقيفي بدقائقه. فليس لأحد أن يبتدع صلاة سادسة في اليوم والليلة، وليس له أن يزيد عليها ركعة واحدة. لكن باب التطوع والنوافل في العبادات واسع أيضًا، وللمرء أن يختار ضمن الحدود المسموح بها شرط عدم الغلو أو التقصير أو تقليد غير المسلمين في كل ذلك. وهكذا يصبح حديث النهي عن البدع هذا وغيره مساعدًا للمسلم على المزيد من البحث في خصائص هذا الدين ضمن مفهوم -في أمرنا هذا- وليس عاملاً للجمود

(١) كتاب الموافقات في أصول الشريعة للإمام الشاطبي.

على النصوص الحرفية وعدم الأخذ من صالح ما يفرزه تقدم الأمم الأخرى، بشرط واحد فقط هو عرض كل جديد على الكتاب والسنة بعقل مفتوح، فإن اتفق معهما أخذه وإن خالفهما طرحه عرض الحائط.

والبدع عدو لدود للسنة، فكلما انتشرت بدعة أميتت سنة من سنن رسول الله ﷺ، لأن كتاب الله وسنة رسوله شاملان لكل جوانب الحياة. فلا تظهر بدعة مخالفة لهما إلاّ وينقص من تطبيق السنة ما يقابلها. لذلك فمحاربة البدع هو إحياء للسنة، وكذلك فإن نشر السنة هو محاربة للبدع.

٢٣- مخالفة أهل الباطل

عن عبد الله بن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :

«خالفوا المشركينَ أحفوا الشواربَ وأوفروا اللّحى» [رواه البيهقي][١]

إن دين الله الحق دين كامل، فهو ليس بحاجة إلى الأضافة. والأمة تستمد تعاليم دينها من كتاب الله وهدي نبيه عليه وعلى آله الصلاة والسلام. وهي أمة مستقلة تعتز بشخصيتها وإستقلالها ولا ترضى أن تذوب في أهواء غيرها من الأمم. لذلك فلا يرضى رسول الله ﷺ بأن يكون المسلمون تبعًا لغيرهم يقلدونهم في كل صغيرة وكبيرة. وبناء على هذا سنّ مخالفتهم في عاداتهم، وإحتفالاتهم و مظهرهم وعباداتهم. فحين قدم المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء. ولما علم أن صيامهم هو في ذكرى نجاة موسى عليه السلام من فرعون، سن صيام عاشوراء، وقال: "**أنا أحق بموسى منكم**» [رواه البخاري]، لكنه سنّ صيام يوم قبله أو يوم بعده. مخالفة لهم وتميزًا عليهم، وبذلك يكون هذا الحديث مكملاً ومفسرًا لحديث النهي عن البدع الذي سبق. وقد قص القرآن الكريم في عشرات الآيات الأفعال السيئة لبني إسرائيل محذرًا من فعل ما يشابهها من قبل هذه الأمة.

والحديث يشير في شقه الثاني إلى مثال واحد على مخالفة المشركين، ألا وهو إعفاء اللحى وإحفاء الشوارب (أي تحديد حافتها بحيث لا يتدلى منها شيء على الشفة العليا). وسنة مخالفة المشركين سنة عامة بمخالفة كل الفرق والمذاهب المخالفة للإسلام وأهل البدع والأفكار المنحرفة والضالة، للتمايز عنهم ووضع حد فاصل بين المؤمنين الصالحين وبينهم لئلا يلتبس الحق بالباطل على من ليس لديه علم واسع من عامة الناس.أما إذا كان غير المسلمين على حق في أمر ما أو كان لديهم من العلم والمعرفة ما نحتاج فالاقتباس مطلوب شرعًا دون أدنى حرج وليس أدل على ذلك من إستعمال النقود الرومانية والفارسية على عهد رسول الله ﷺ وأصحابه لحين سك

---

(١) الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ولد سنة ٣٨٤هـ، وتتلمذ على يد الحاكم، ألف في فقه الشافعي وهو صاحب الكتاب الضخم (السنن) في عشر مجلدات في الأحاديث النبوية. توفي سنة ٤٥٨هـ.

النقود الإسلامية في زمن عبد الملك بن مروان. ولم يجد أحد منهم ضيرًا في ذلك، وحينما سُكَّت النقود طبعت بالطابع الإسلامي المتميز وبذلك تمت مخالفة نهج الكفار من الفرس والروم.

٢٤ـ إتقان العمل

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ :

«إن اللّه يُحبُّ إذا عَمِلَ أحَدَكُم عملاً أن يُتقِنَهُ» [رواه البيهقي في شعب الإيمان]

إتقان العمل هو عبادة مستقلة عن العمل. فأنت تعمل العمل من أمور الأخرة أو الدنيا مما ليس فيه معصية لله تعالى بنية صالحة فتثاب على ذلك لأن ذلك عبادة. فإن أتيت بذلك العمل على أكمل وجه كان ذلك عملاً إضافيًا له أجره المستقل، وهو ما يحبه الله تعالى. فقد خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم حيث قال ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٥]. وهو ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧] وكذلك يريد لعباده إتقان الأعمال. إن المسلمين اليوم كثيرًا ما يعملون العمل فلا يتقنونه، وهذا هو أحد أسباب تأخرهم، في الوقت الذي أخذت الأمم الأخرى باتقان العمل الدنيوي فتقدمت. وإتقان العمل هو غير الحرص على الدنيا الذي نهى رسول الله ﷺ عنه في أحاديث أخرى (راجع الحديث (١١) وشرحه). فالمؤمن يتقن العمل إبتغاء وجه الله وهو يعيش في الدنيا وقد أفرغ قلبه من التعلق بها وبمباهجها والحرص عليها. ومن أتقن العمل لقي الجزاء، وأقل الجزاء هو الجزاء الدنيوي.

فالمؤمن إذا عمل عملاً أتقنه لأن الله يحب ذلك، فهو يُحَضِّرُ كل مستلزماته ويبحث عن مقومات النجاح ويخطط لإكمالها ويتعاون مع غيره في سبيل ذلك، ويفرغ جهده كله في إنجاح العمل، وأثناء كل ذلك يتكل على الله تعالى ويدعوه بالتوفيق والسداد، وهو لا ينتظر من ذلك جزاءً دنيويًا لأن نتيجة العمل قد تظهر في حياته وربما بعد مماته، وهكذا فإن إتقان المسلم للعمل هو عبادة إضافية يرجو ثوابها من الله تعالى.

٢٥ـ الاستفادة من الوقت

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«إغتنِم خَمسًا قبلَ خَمسٍ: حياتكَ قبلَ موتِكَ وصِحَتكَ قبلَ سَقَمِك وفراغَكَ قبلَ شُغلِك وشَبابَك قبل هرَمِك وغِناكَ قبلَ فقرِك» [رواه الحاكم والبيهقي]

الحياة فرص، وما ذهب منها فلن يعود، لذلك على الإنسان أن يغتنمها قبل فوات الأوان. ويجمل هذا الحديث الفرص التي على المرء أن يغتنمها قبل فوات الأوان. فإغتنام الحياة قبل الموت يكون بالعمل للآخرة طيلة فترة الحياة وخاصة بعمل ما يبقى أثره بعد الموت من أعمال صالحة وإغتنام الصحة في الأعمال الصالحة قبل أن يمرض الإنسان فلا يستطيع أداء كثير من الواجبات. والفراغ قبل أن يشغل المرء بأمور لم يكن يتوقعها، وإغتنام فترة الشباب للقيام بالأعمال الصالحة التي تحتاج قوة بدنية لا يستطيع أن يقوم بها الشيخ الهرم، وللحياة أحوال متباينة من عسر ويسر، وغنى وفقر فالكيس الغني مثلاً من إغتنم فترة الغنى بالإنفاق والصدقات وليس بإنفاق المال على الملذات الزائلة. والشاب المسلم يغتنم فترة شبابه في طاعة الله والمسلم المعافى يغتنم صحته في عمل الخير لأنه لا يعلم متى يأتيه المرض.

في هذا الحديث يعلِّم سيدنا رسول الله ﷺ المسلمين قيمة الوقت التي قلت عند غالبيتهم اليوم، بينما يستغل غيرهم أوقاتهم في حدود ما يؤمنون به من فلسفات وعقائد من وضع بني آدم. أليس الأحرى بالمسلمين أن يغتنموا كل ساعة بل كل لحظة لما فيه خيرهم في دنياهم وأخراهم؟

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فما خلق الله الناس للّهوِ واللعب ولا للغناء والطرب. وقد أمر الله تعالى رسوله بإستمرار العبادة حتى الموت فقال عزوجل: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩]. على المرء أن يعلم بأن الواجبات أكثر من الأوقات، لذلك فلا وقت هناك كي يضيعه في الترهات، ولو أحصى المرء ما عليه من واجبات تجاه ربه وتجاه مجتمعه وتجاه أهل بيته وأقربائه بل وتجاه نفسه في دنياه وآخرته، لما فرط في لحظة واحدة في عمل غير مجد من لهو ولعب. وقد يظن البعض أن التمسك بذلك يضفي على الحياة جفافًا وصرامة وتعقيدًا. وهذا غير صحيح، فليس المقصود بإستغلال الوقت عدم تخصيص وقت للراحة والمزاح الذي لا يدخله الكذب ولا الترويح عن النفوس، فكل ذلك من العبادة إن أخلصت النية، فقد كان رسول الله ﷺ يمزح ولا يقول إلاّ الحق حيث قال **«إني لأمزح ولا أقول إلاّ حقًا»** [رواه الطبراني]. وقد مر بنا تحت الحديث (١) قول علي بن أبي طالب ﷺ: روحوا القلوب فإنها إذا كرهت عميت، وما ساعة الراحة إلاّ ساعة عون للنفس على العبادة فهي ضرورية كضرورة النوم لجسم الإنسان.

٢٦ـ دوام العمل الصالح

عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ :

"أحبّ الأعمالِ إلى الله أدومُها وإن قلّ» [متفق عليه]

إعتاد بعض الناس على كثرة العبادة في رمضان من صيام نهاره وكثرة صلوات النوافل كالتراويح وغيرها، فإذا إنقضى رمضان ترك العبادة وربما حتى

الفريضة، ويعلل ذلك بكثرة الأحاديث التي تمتدح العبادات في رمضان وأن فيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر. وهذا حق، لكن دوام العمل المفروض أفضل من ذلك، فقد فرض الله تعالى الصلاة وجعلها بأوقات محددة، "**إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتابًا مَوْقُوتا**» [النساء: ١٠٣]. وفي دوام ذكر الله تعالى خير كثير، وبالخلق الحسن وهو من الأعمال الدائمة يبلغ المرء درجة العبد الصائم القائم. سئل رسول الله ﷺ: أي العمل أحب إلى الله قال: "**الحالّ المرتحل**»، قيل وما الحال المرتحل؟ قال: "**أَلّذي يضرِبُ مِن أوّل القُرآنِ كُلّما حَلّ ارتحَلَ**» [رواه الترمذي]. إشارة إلى فضل العمل المستمر على المتقطع حتى وإن كان العمل المتقطع أكثر من العمل المستمر، فالله سبحانه وتعالى يبارك بالعمل المستمر ويرفع من مكان صاحبه لأنه تعالى يحب دوام العمل الصالح. فالمؤمن شخص سوي دائم العمل غير متذبذب بين الإفراط والتفريط ويتبع في حياته منهجًا واضحًا على وتيرة واحدة متسقة يكمل بعضها بعضًا. فالعمل القليل بالاستمرار يكمل بعضه بعضًا فيتكون العمل الكثير، وعند ذلك يبارك الله فيه فتظهر فوائده. أما العمل المتقطع فربما تضمحل آثاره بعد فترة فإذا ما عاد المرء اليه إحتاج وقتًا إضافيًا لكي يعود إلى المستوى الذي ترك العمل عنده. فقراءة جزء من القرآن كل يوم أفضل من القراءة سبعة أجزاء في يوم واحد وتركها ستة أيام، وقس على ذلك.

٢٧ـ التسامح عند الاختلاف

عن عبد الله بن عمر ﵄ أن رسول الله ﷺ قال يوم الأحزاب: "**لا يُصَلّيَنّ أحَد إلاّ في بَني قُريظة**» فأدرك بعضهم العصر في الطريق فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي لم يُرد منا ذلك. فذُكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعَنّف واحدًا منهم.

[رواه الشيخان]

الاختلاف متوقع بين بني آدم طالما إختلف الناس في قابلياتهم على الفهم. قال الله تعالى: " **ولا يَزالونَ مُختلِفينَ إلاّ من رَحِمَ رَبّك ولذلك خَلَقَهُم** " [هود: ١١٨-١١٩]. لكن الله تعالى دعى المسلمين إلى الاعتصام بحبل الله وعدم التفرق في الدين: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥]. فالله سبحانه وتعالى يريد ان يكون المسلمون يدًا واحدة غير مختلفين يسامح بعضهم بعضًا غير متعصبين لرأي شخصي أو إجتهاد ولا تبني آرائهم على تعصب لجنس أو نزعة قبلية أو عنصرية أو طائفية. وهكذا فإن الرسول ﷺ حينما عرف باختلاف صحابته في فهمهم لأمر أمرهم به هو، رضي عن إجتهاد كلا الفريقين لأن كليهما إستند في فعله على أمر رسول الله ولم يستند لا إلى رأي رجل يخطئ ويصيب ولا إلى هوى نفسه أو مصلحة شخصية. كما أن كُلا من الفريقين رضي من الفريق الآخر

بفعله فلم يخاصم أحدهما الآخر أو يجبره على إتباع رأيه فيحدث الشقاق وتباعد القلوب. وهكذا فإن الاختلاف في الاجتهاد مقبول. كما يشير الحديث إلى حرص الصحابة رضوان الله عليهم على معرفة الحق باحتكامهم إلى أولي العلم منهم (وكان في حالتهم هذه هو رسول الله ﷺ نفسه) الذي علمهم بأن هذا القدر من الاختلاف أمر متوقع ولا بد منه وهو مقبول وعليهم أن يقبلوه.

يعود إختلاف الفقهاء إلى عدد من الأسباب: أحدها هو اختلاف أفهام الناس من نص معين (آية من كتاب الله أو حديث من أحاديث رسول الله ﷺ) كما كانت الحالة في اختلاف الصحابة في هذا الحديث، وقد يكون سبب الاختلاف هو عدم ثبوت نص عند بعض بينما ثبت عند آخرين. وقد يكون الاختلاف سببه إختلاف الأقاليم والمواقع وأعراف الناس والتي على الفقيه أن يراعيها. كما أن الاختلاف يكون أحيانًا نتيجة أخذ الأول بالرخصة والثاني بالعزيمة. وكل هذه الأسباب مقبولة وليست مدعاة للتناحر والتعصب والفِرقة. وما ظهرت الطائفية بين المسلمين إلا حينما تعصب أتباع المذاهب إلى فتاوى وتفاصيل وتركوا إتفاقهم على أصول الدين الرئيسة. وهكذا فالمؤمنون الصادقون يتعاونون فيما إتفقوا عليه ويعذر بعضهم بعضًا فيما إختلفوا فيه.

إن إختلاف الصحابة المذكور في الحديث كان بالحقيقة نتيجة أخذ الفريق الأول بالنص الحرفي لأمر رسول الله ﷺ، والفريق الثاني بالمفهوم العام حيث فهموا من النص أن المقصود الأصلي هو الإسراع في السير للوصول قبل نهاية وقت العصر وليس المقصود هو تأخير وقت الصلاة. ومثل هذا الاختلاف كثير الوقوع في فهم أحكام تفصيلية من آيات أو أحاديث صحيحة. وقد تكون أحيانًا حجة التمسك بالنص أقوى أو التمسك بالمفهوم في حالات أخرى أقوى، إلاّ أنه يجب على الدوام عدم الشذوذ والخروج في التأويل عن حد ما تحتمله اللغة العربية عند الاستنباط من النص وفي الوقت نفسه عدم التمسك بحرفية جامدة بعيدة عن روح الدين وأصوله السمحة.

لقد إختلف الفقهاء بعد جيل الصحابة فتكونت المدارس الفقهية، ونشأت المذاهب المختلفة، وكان أئمة تلك المذاهب على درجة عالية من التقوى والتسامح، لكن بعض المتأخرين تعصبوا لأحد المذاهب وغالوا في إثبات صحة كل ما ورد في ذلك المذهب وخطأ كل ما ورد فيما سواه وتقديس كلام أئمة المذاهب كتقديس حديث رسول الله ﷺ، فظهرت الفرقة والتناحرات المذهبية التي تزدهر دائمًا في أوقات التدهور والانحطاط. لقد كانت الفتن والخلافات المذهبية تعج بالعالم الإسلامي أيام الغزو الصليبي واحتلالهم القدس، حتى أن الدماء سالت في بغداد في خلاف أتباع المذهبين الشافعي والحنبلي بسبب قنوت بعضهم في صلاة الفجر وعدم قنوت الآخرين. وما طرد الصليبيون إلاّ بعد يقظة المسلمين ونبذهم الخلاف والتعصب.

إن على المؤمن أن لا يتعصب لمذهب معين، وله أن يتبع أحدها، فذلك من اليسر في الدين، لكن عليه أن لا يعتقد أن المذهب الآخر هو ضلال وخروج عن الدين، وله أن يأخذ برأي المذهب الآخر إن عرف دليل الطرفين واقتنع بدليل أحدهما. كما أن للمؤمن أن يأخذ الحكم مباشرة من نصوص أحاديث رسول الله ﷺ دون تقيد بمذهب معين شرط أن يكون على علم بدرجات صحة الحديث وعلله مع

علم بأصول الفقه والناسخ والمنسوخ وأساليب اللغة العربية. ولقد ورد عن أئمة المذاهب الفقهية أنهم قالوا إن صح الحديث لديهم أخذوا به. وعلى من يأخذ الأحكام من الحديث مباشرة أن لا يتعصب لاستنباطه لأن من خالفه من أئمة المذاهب ربما كانت حجتهم قوية وراجحة، فكلهم من رسول الله ملتمس غرفًا من البحر أو رشفًا من الديم.

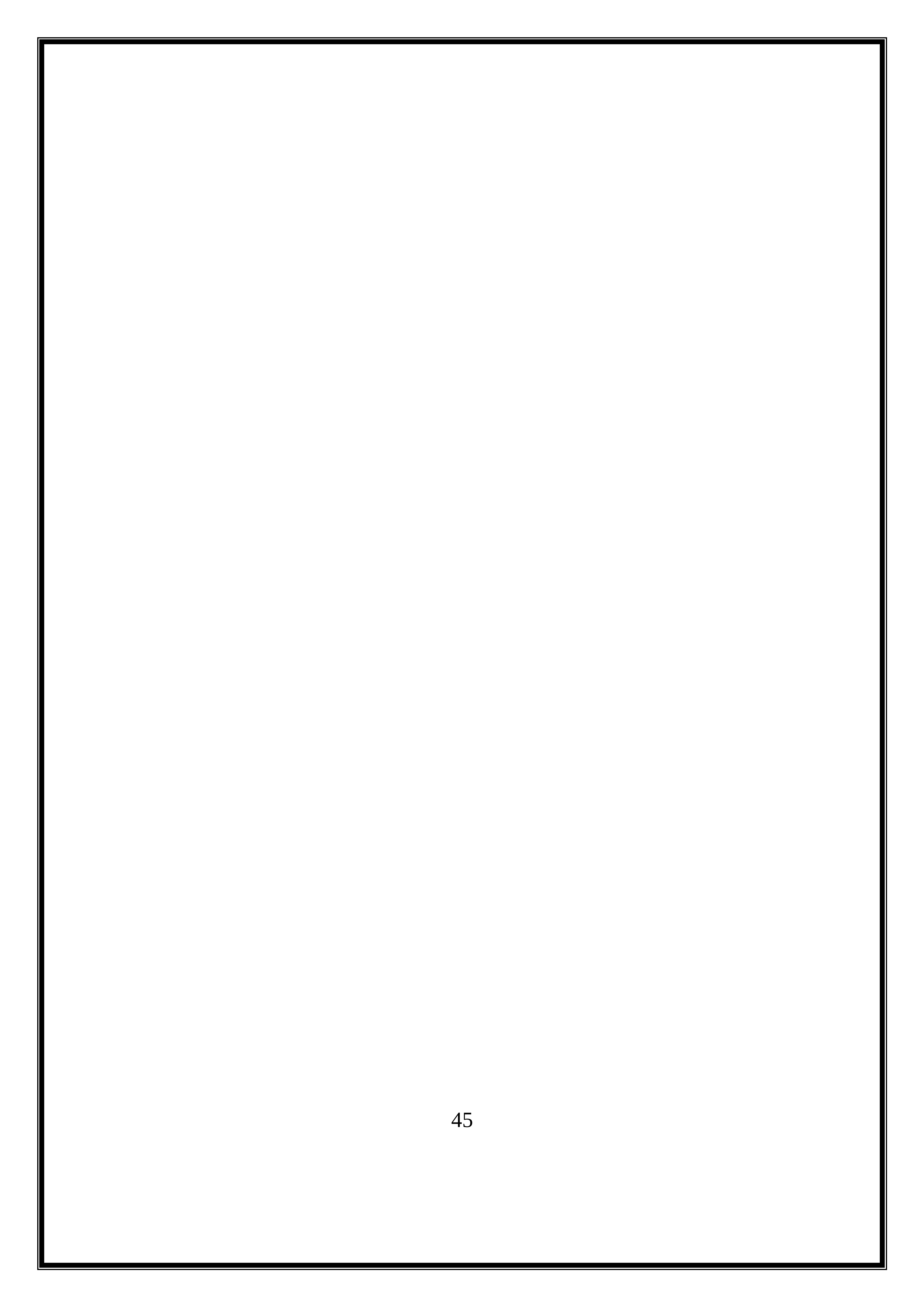
٢٨ـ الاستشارة والاستخارة

عن جابر بن عبدالله ﵁ قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كالسورة من القرآن يقول: "**إذا هَمّ أحدُكم بالأمرِ فليركع ركعتينِ مِن غيرِ الفَريضة ثمّ ليَقُل: اللّهُمّ إنّي أستخيرُكَ بعِلمِكَ وأستقدِرُكَ بقُدرَتِكَ وأسألُكَ مِن فَضلِكَ العَظيم فإنّكَ تقدِرُ ولا أقدِرُ وتعلَمُ ولا أعلَمُ وأنتَ علاّمُ الغيوبِ، اللّهم إن كُنتَ تعلَمُ أنّ هذا الأمرَ خيرٌ لي في ديني ومَعاشي وعاقِبَة أمري (أو قال عاجلِ أمري وآجلِهِ) فاقدِرهُ لي ويَسِّرهُ لي ثمّ بارِك لي فيهِ وإن كُنتَ تعلمُ أنّ هذا الأمرَ شَرّ لي في ديني ومَعاشي وعاقِبَة أمري (أو قال عاجلِ أمري وآجلِهِ) فاصرِفهُ عَني واصرِفني عَنهُ واقدِر لي الخيرَ حيثُ كانَ ثمّ رَضّني بهِ، ثم قال " ويُسَمّي حاجَتَه»**
[رواه البخاري]

إذا مر بالإنسان أمر من أمور دينه سأل أهل العلم، وإن أشكل عليه أمر من أمور دنياه إستشار من يثق به عقلاً وعلمًا ونصيحة، فما ندم من إستشار وأمر الله تعالى بالمشورة حتى لنبيه ﷺ الذي كان ينزل عليه الوحي فقال: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وحث المؤمنين على المشورة: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الشورى: ٣٨]. ومن إستنصحه أخاه فلينصحه وليشر عليه أفضل ما يصل إليه جهده فالمشورة أمانة ومن قصّر فيها فقد خان الأمانة. ولكن مع كل جهد الإنسان وما يسمع من مشورة، قد يصل إلى حالات من عدم التأكد في أي الأمور أفضل له، لأنه لا يعلم ما يخبؤه المستقبل الذي علمه عند الله تعالى، وهنا تكون الاستخارة.

فالاستخارة تحكيم عملي من المؤمن للشرع في ما ليس بإمكانه التأكد منه من أموره والدعاء من الله تعالى بالتسديد والهداية للأفضل في الدنيا والآخرة ثم بعد ذلك التوكل على الله فيما تؤول إليه النتائج بحيث لا يلوم نفسه ولا غيره فيما يقرر فينعم بعد ذلك بالرضى عن النتائج حتى ولو كانت النتائج مكروهة إلى نفسه: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦] فالمؤمن كلما مر عليه أمر ذي بال يريد أن يقرر فيه، يصلي ركعتي

الاستخارة ويدعو بهذا الدعاء، وبعد ذلك يرضى عن النتائج ويعتقد أن فيها الخير طالما قد دعى الله تعالى وهو موقن بالإجابة بأن ييسر له الأمر الذي فيه الخير ويرَضيه به.



الفصل الثالث
الاستقامة في العبادات

٢٩ـ المحافظة على الفرائض

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:

قال الله عز وجَلّ: **من أذلّ لي وليًا إستحَلّ محاربَتي وما تقَرّبَ إليّ عَبدي بمِثلِ أداء الفرائض وما يَزالُ العَبدُ يَتقَرّبُ إليّ بالنوافِلِ حتى أحبُه، إن سألني أعطيتهُ وإن دعاني أجبتهُ، ما ترَددتُ عن شيء أنا فاعِلُهُ ترَدُدي عن وفاتِهِ لأنَهُ يكرَهُ الموتَ وأنا أكرَه مساءتهُ»** [رواه البخاري في الرقائق وأحمد واللفظ له]

المحافظة على الفرائض رأس مال المؤمن، ومن ضيع رأس ماله بارت تجارته، قال محمد بن منازل [1] لم يضيع أحد فريضة إلا إبتلاه الله تعالى بتضييع السنن، ولم يبل أحد بتضييع السنن إلا أوشك أن يبتلى بالبدع. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: ثلاث صاحبهن جواد مقتصد: فرائض الله يقيمها ويتقي السوء ويُقِلّ الغفلة، وثلاث لاتحقرن خيرًا تبتغيه ولا شرًا تتقيه ولا يكبرن عليك ذنب أن تستغفره وإياك واللعب فإنك لن تصيب به دنيًا ولن تدرك به آخرة ولن ترضي به المليك وإنما خلقت النار لسخطه وإني أحذرك سخط الله عزوجل.

أداء الفرائض أساس القربات عند الله. فالصلوات الخمس في أوقاتها وصيام رمضان وأداء الزكاة وحج البيت لمن إستطاع إليه سبيلاً، هذه الفرائض، إذا خلصت فيها النية لله تعالى لا يعدلها عمل آخر يقرب من الله تعالى. أما النوافل فترفع من مكانة العبد عند ربه حتى يصطفيه الله ويجعله من خاصة عباده الصالحين الذين يحبهم ويحبونه. فإن بين الناس إذا أحب امرؤا أحب أن يفعل ما يدخل السرور إلى نفسه. والله سبحانه إذا أحب عبدًا ودعاه ذلك العبد بدعوة يحب أن يستجيبها الله له، فإن الله يجيب دعاءه. ولكن الله تعالى قد كتب أمورًا لا ينفع فيها دعاء داع. فلو طلب شخص من الله أن يخلده في هذه الحياة فلن يستجيب الله لمثل هذا الدعاء لأن مشيئته عز وجل قد سبقت ذلك الدعاء بحدود أجل ذلك الشخص، فإذا جاء الأجل فلا يتأخر ساعة ولا يتقدم، والله يكره أن يفعل ما يكرهه حبيبه المؤمن بقبض روحه، لكنه لا بد فاعل.

إن لكل فريضة من الفرائض ما يشابهها من النوافل لسد النقص فيها ولزيادة التقرب إلى الله تعالى بعبادة تماثل ما فرض. فهناك نوافل من الصلوات وهناك صدقة التطوع فوق الزكاة وهناك العمرة وحج التطوع بعد الفريضة، فإذا أدّى العبد الفرائض وازداد من النوافل تقرب من الله فيحبه الله ويكون من جملة أولياء الله

(١) محمد بن منازل كان عالمًا بالحديث، مات بنيسابور سنة ٣٢٩هـ.

الصالحين الذين لهم مكانتهم عند الله تعالى من إجابة الدعاء وقبول الشفاعة وحسن الثواب يوم القيامة والدفاع عنهم في الحياة الدنيا. ففي بداية هذا الحديث تهديد من الله تعالى على لسان نبيه ﷺ لمن يعادي أولياء الله الصالحين. وسنأتي على تفصيل أكثر لذلك في الحديث(٦٠).

٣٠ـ المراقبة

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه وقال: يامحمد... أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: "**الإسلامُ أن تشهد أن لا إله إلاّ الله، وأن محمدًا رسولُ الله، وتقيمَ الصَلاة، وتؤتي الزَكاة، وتصومَ رَمضانَ، وتحجَ البيتَ إن إستطعتَ إليهِ سَبيلاً**»، قال صدقت، فعجبنا له، يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: "**أن تؤمِنَ باللّه، وَملائكتِهِ وكُتبهِ ورُسُلِهِ واليومِ الآخِرِ، وتؤمِنَ بالقَدَرِ خيرِهِ وشرّه**»، قال: صدقت. قال فأخبرني عن الإحسان، قال: "**أن تعبُدَ اللّهَ كأنّكَ تراهُ، فإن لَم تكُن تراهُ فإنّهُ يَراكَ**»، قال فأخبرني عن الساعة، قال: "ما المَسؤولُ عنها بأعلمَ من السائلِ "قال فأخبرني عن أماراتها، قال: "**أن تلِدَ الأمَةُ رَبّتها، وأن ترى الحُفاة العُراة العالَة رعاء الشاءِ يَتطاوَلونَ فِي البُنيان** "، ثم إنطلق فلبث مليًا ثم قال: "**يا عمر... أتدري مَن السائلُ؟** "قلت الله ورسوله أعلم، قال: " **فإنّهُ جبريلُ أتاكُم يُعَلّمَكُم دينَكُم**» [رواه مسلم]

في هذا الحديث علم كثير يستحق أن تكتب فيه الكتب، لكن ما نود ذكره هنا هو أن أساس العبادات هو مراقبة الله تعالى فإنه يَرى ولا يُرى، ومن عبد الله وكأنه يرى الله تعالى فقد بلغ مرتبة الإحسان. وهذه المراقبة لاتكون بالدعوى والكلام بل هي في قلب المرء، ومن راقب الله في سره هداه الله إلى الأعمال الصالحة ويسرها له، فمراقبة النفس ما هي إلاّ مجاهدتها أن ترتكب ما لا يرضاه الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩]. وقد كان أشد الناس مراقبة لله تعالى بعد رسول الله ﷺ، أصحابه الكرام فقد ورد عن أنس ﷺ أنه قال: إنَّكُم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات [رواه البخاري]. وقال ذوالنون المصري علامة المراقبة إيثار ما آثر الله تعالى وتعظيم ما عظَّم الله تعالى وتصغير ما صغّر الله تعالى. ذلكم هو الفرق بين جيل الصحابة وتابعيهم وبين ما أعقبهم من أجيال: فلقد عبدوا الله تعالى بإخلاصهم ومراقبتهم لأنفسهم قبل أن تتحرك جوارحهم بالعبادة فأكرمهم الله تعالى بالهداية والتسديد في هذه الحياة الدنيا ولأجر الآخرة أكبر.

٣١ـ المحافظة على الصلاة

عن عثمان بن عفان ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«ما من امرئ مُسلِم تحضُرهُ صلاة مَكتوبَة فيُحسِنَ وُضُوءها وخُشوعَها ورُكوعَها إلاَ كانت كفّارَةَ لِما قبلَها من الذنوبِ ما لم تؤتَ كَبيرة وذلك الدَهرَ كلَه» [رواه مسلم]

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴾[النساء: ١٠٣]، وللتوقيت حكمة بالغة في تطهير المؤمن وتذكرته مرة بعد أخرى خمس مرات كل يوم وليلة في الصلوات الخمس ومرة كل أسبوع في صلاة الجمعة ومرتين في السنة في صلاتي العيدين ومرات في كل حادث خاص كالجنازة والكسوف والاستسقاء. وقد تكررت آيات الأمر بإقام الصلاة عشرات المرات في القرآن الكريم. وإقام الصلاة هو ليس أداؤها قيامًا وقعودًا بل هو تنفيذ أركانها من خشوع وتفكر وتدبر لآيات الله تعالى ثم إنعكاس ذلك بعد أدائها على فعله وتركه خارجها من إتباع لأوامر الله تعالى وإنتهاء عما نهى عنه. فلا عجب إذا كانت الصلاة وسيلة لتطهير العبد مما يعلق به بين الصلوات من شوائب الدنيا وغفلة وصغائر الذنوب. أما إذا ارتكبت الكبائر فتلك ذنوب كبيرة لا تكفي الصلوات الخمس لتطهيرها. والمؤمن الصادق أصلاً مجتنب للكبائر فهو يرجو أن يمنّ الله عليه بالمغفرة مرة بعد أخرى كل صلاة من الصلوات المكتوبة. وذلك الدهر كله، فهو طاهر من الذنوب مستعد للقاء ربه أية لحظة قدّر الله عليه الموت فيها.

والمسلم المستقيم يعبد الله كأنه يراه، والعبادة هنا تشمل المعنيين: المعنى الاصطلاحي من صلاة وصيام وزكاة، وما سنذكره من عبادات أخرى في هذا الباب، كما تشمل العبادة بمعناها العام وهي إخلاص النية لله في كل عمل من أعمال الدنيا والآخرة إبتغاء مرضاة الله تعالى. فإذا استشعر المسلم أن الله يراقبه على الدوام كأنه يرى الله تعالى، فإنه جعل في داخل نفسه ناصحًا مراقبًا له يسدده كلما أخطأ، وينصحه كلما إحتاج إلى نصيحة، وهداه إلى الصراط المستقيم كلما أشكلت عليه الطرق، والله تعالى أقرب للمرء من حبل الوريد وهو الهادي إلى سواء الصراط.

لقد وصف الله الصلاة: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، فالصلاة عماد الدين ومن تركها فقد هدم دين نفسه، وأول ما يُسأل العبد يوم القيامة عن الصلاة وكان من جملة آخر ما أوصى به رسول الله ﷺ أمته بالصلاة. فالمؤمن الصادق لا يتهاون بالصلاة أبدًا، ويحرص على أدائها جماعة أول وقتها إن إستطاع وإلاّ منفردًا ضمن وقتها المسموح بها ولا يؤخرها إلى نهاية الوقت إلاّ مضطرًا ولا بعد خروج وقتها، وهو يصلي مع الفرائض الخمس السنن الراتبة ويصلي ما تيسر له من النوافل. وأهم ما يجب أن ينتبه إليه المرء في الصلاة هو ما ذكر في هذا الحديث من تحسين للوضوء والطهارة التامة والخشوع التام وإتمام الركوع والسجود.

٣٢ـ المحافظة على الطهارة

عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "**الطّهورُ شَطرُ الأيمانِ**» [رواه مسلم]

الطهور واسع الجوانب بما فيه من طهارة من الحدث وإستنجاء ووضوء وطهارة من النجاسة والنظافة الظاهرة والباطنة. ولقد خلق الله تعالى الماء طاهرًا ومطهرًا ووفره على سطح الأرض بكثره وخلق منه الكائنات الحية حيث قال: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. وحث الله تعالى على المبالغة في التطهر حيث مدح الأنصار فقال: ﴿أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٨].

الطهارة عبادة قائمة بحد ذاتها مستقلة عن الصلاة رغم أنها شرط لها، لذلك فمن الطهارة ما هو فرض ومنها ما هو سنة أو نافلة. فالوضوء قبل النوم مستحب، بل كان بعض الصحابة كعبد الله بن عمر رضي الله عنهما لا يُرى جالسًا إلاّ طاهرًا، كما أن غسل اليدين مستحب قبل الطعام وبعده، والاستنزاه من البول واجب فحين مر ﷺ على قبرين فقال: "**إنّهُما ليُعذّبانِ وما يُعذّبانِ في كَبير، بلى إنّهُ كَبير، أمّا أحدُهُما فكانَ يَمشي بالنّميمةِ، وأمّا الآخر فكانَ لا يَستتِرُ مِن بولِهِ**» [متفق عليه]. ومن الأمور التابعة للطهارة الختان وقص الأظافر وقص الشارب ونتف الإبط، وكل ذلك من حث الإسلام على النظافة، كما أن غسل الميت وشرط طهارة المكان الذي يصلى فيه والثياب التي يلبسها أثناء الصلاة، كل ذلك مما أوجبه الله مما له علاقة بالطهارة.

والمبالغة في الطهارة أمر مستحب، لكن الوسوسة غير ذلك فمتى عرف المرء أنه قد أتم جزءًا من أمور الطهارة عليه أن لا يعود إلى ما يشكك الشيطان فيه من ظن بأنه ربما يكون قد أغفل ذلك. كما أن التبذير في إستخدام الماء في الوضوء أو الاستحمام أو الاستنجاء مكروه جريًا على أصل كراهة التبذير بصورة عامة: ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ نَشَآءُ كَفُورًا مَا ﴾[الإسراء: ٢٧]. وللطهارة عند عدم وجود الماء بديل هو التيمم والذي هو فعل لتأكيد القصد رغم أنه لا أثر ظاهر له في إزالة النجاسة، وهذا يشير إلى إختلاف مفهوم الطهارة عن النظافة، فالطهارة والنظافة متداخلتان أحيانًا ومختلفتان في أحيان أخرى. ولو لم يكن في الطهارة سوى الفوائد التي لها علاقة بالنظافة لكفى بذلك أمرًا يستحق أن يفخر به المسلم. ومن عاش في بلد فيه كثرة من غير المسلمين واطلع على دقائق أحوالهم وما ينتشر بينهم من أمراض عرف مقدار النعمة التي أنعم الله بها على المسلمين بأمور الطهارة وما يتعلق بها.

والطهارة الباطنة وهي الأهم تعني تنزيه الباطن عن الإثم والشر والسوء. فتطهير الظاهر ما هو إلاّ وسيلة من وسائل تطهير الباطن، فالقيام بأعمال الطهارة يُذَكِّرُ الإنسان بضرورة الاهتمام بطهارة الباطن والتي تهدف إليها معظم العبادات الأخرى، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في كثير من الآيات مثل قوله تعالى عن ذبح الأضاحي: ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾[الحج: ٣٧].

٣٣ـ أداء الزكاة

عن أبي هريرة ﷺ أن أعرابيًا أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة... قال: **"تعبُدَ اللّهَ لا تشرِكُ بـهِ شيئًا، وتقـيمَ الصلاةَ، وتـؤتي الزكاةَ المَفروضَةَ، وتصومَ رَمضانَ»**، قال والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا. فلما ولّى، قـال النبـي ﷺ: **"مَـن سَـرَهُ أن يَنظُـرَ إلى رَجُـلٍ مـن أهـلِ الجَنّـةِ، فليَنظُـر إلى هـذا»**. [متفق عليه]

الزكاة المفروضة قرنت بالصلاة في القرآن الكريم في عشرات الآيات، وقال أبو بكر الصديق حين إمتنع الأعراب عن دفع الزكاة: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، وَسُمُّوا بالمرتدين لقولهم عن الزكاة أنها كالجزية، أو أنهم دفعوها لرسول الله ﷺ كنبي فلا تدفع لأحد من بعده. والزكاة عبادة ذات أثر إجتماعي واضح من تكافل وتعاون ومساعدة للفقراء والمحتاجين. وهي لها أثرها على المرء الذي يدفعها نفسه في مقاومة البخل والحرص والشح وحب الدنيا وتعلق القلب بها، وفي كل ذلك فائدة للمرء نفسه حيث يزداد تقوى وتسمو روحه ويتقرب بذلك إلى الله عز وجل. فالمؤمن الصادق يعتبر المال مال الله قد وكله الله تعالى عليه مدة محدودة (أثناء حياته)، فهو يستعمله لخير نفسه وذوي قرباه ويبتغي بذلك وجه الله تعالى، ويؤدي حق الله فيه من زكاة مفروضة ويزداد ما استطاع في الصدقات فوق الفريضة، فكل ذلك ذخر له في الآخرة. فقد أنفق أبوبكر الصديق ﷺ كل ماله في سبيل الله وأنفق عمر نصف ماله وأنفق غيرهما الكثير.

وفي وصف النبي ﷺ للرجل بأنه من أهل الجنة ملاحظة تستحق الوقوف عندها. فصدق الأعرابي ومعاهدته الله سبحانه وتعالى أمام النبي ﷺ بأن يلتزم بهذه الأركان، هو الذي جعل النبي ﷺ يخبر أصحابه بمكانته عند الله تعالى، وهي كذلك لكل من صدق مع الله والتزم بما يأمره الله به من فرائض أساسية. وتلك هي البيعة الصادقة.

٣٤ـ صوم رمضان

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :

«قـال اللّـه عزّوجَلَ: كُلّ عَمَلِ ابـنِ آدم لَـهُ إلاّ الصيامُ فإنّـهُ لـي وأنـا أجـزي بـه، والصيامُ جُنّة، فإذا كانَ يومُ صَومِ أحـدِكُم فـلا يَرفُث ولا يَصخَب، فإن سابّهُ أحَـد أو قاتلَهُ فليَقُل إنّي صائم، والّذي نَفسُ مُحَمّد بيَدِهِ لَخلوفُ فَـمِ الصائمِ أطيَبُ عِنـدَ اللّـه مِن ريحِ المِسك. للصائِمِ فَرحَتانِ يفرَحُهُما، إذا أفطَرَ فَرِحَ، وإذا لَقيَ رَبّهُ فَرِحَ بصومِهِ» [متفق عليه]

الاستقامة سيطرة الإنسان على تصرفاته بما يوافق الشريعة الغراء، وما الصيام سوى وسيلة لمساعدته في ذلك، فإذا إستطاع أن يسيطر على شهواته إنقادت له نفسه، فكانت مساعدة له في الاستقامة على النحو الذي يرضي ربه. فالصيام عبادة خاصة

يجازي الله سبحانه وتعالى عليها جزاء خاصًا لأن فيها سرًا بين العبد وربه لا يعلمه إلا هو ولهذا نص هذا الحديث الشريف على أن الصيام لله تعالى. وهي عبادة للمسلمين ولمن سبقهم من الأمم حتى التي لم يؤثر ان لها كتاب منزل من عند الله وهي علاج بدني وروحي فريد. فالصيام وقاية من المفاسد ووسيلة لترويض الإنسان على الصبر وتحمل المشاق والشدائد وتحمل الأذى ومقابلة الإساءة بالإحسان وكبح جماح النفس لكي تكون منقادة لمكارم الأخلاق التي يرضى عنها الله سبحانه وتعالى.

إن صيام شهر رمضان تزكية لنفس المؤمن شهرًا كل سنة وترويض لها. وهو بحاجة إلى هذه التزكية البدنية لكي تسمو روحه ويستطيع التحكم في شهواته فلا يستعملها إلاّ في طاعة الله تعالى. كما أن البدن نفسه بحاجة إلى هذه العبادة من راحة للمعدة وتنظيم لجهاز الهظم وتغيير للعادة وغير ذلك. وبعد صيام رمضان، للمسلم أن يصوم تطوعًا ما ورد في سنة رسول الله ﷺ كصيام يوم عرفة وعاشوراء ويومًا قبله ويومًا بعده وثلاثة أيام من كل شهر أو يومي الإثنين والخميس، وأفضل الصيام صيام داود عليه السلام كان يصوم يومًا ويفطر يومًا.

٣٥ـ حج بيت الله الحرام

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :

"مَن حَجَّ فلَم يَرفُث ولَم يَفسُق رَجَعَ مِن ذنوبهِ كيومٍ وَلَدَتهُ أمُّهُ»

[رواه الستة إلاّ أبا داود]

الحج خامس الأركان الخمسة، وهو فريضة في العمر مرة لمن إستطاع إليه سبيلاً. وهو مجمع المسلمين السنوي، وفيه يتشبه الحاج بالأموات الذين سيكون يومًا ما واحدًا منهم، فهو تذكرة بالغة للمسلم لكي ينقلب على سالف أيامه إن كان من المسرفين فيها، ويزداد إحسانًا إن كان من الصالحين. والحج هو المؤتمر العام للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، لكي يستشعروا أن ربهم واحد ونبيهم واحد وقبلتهم واحدة وأمتهم واحدة: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢]. والمؤمن يتوق إلى زيارة بيت الله الحرام في أول فرصة تسنح له، ولا يؤخر ذلك، فرب فرصة تسنح ولا تتكرر، وفي ذلك يقول عليه الصلاة والسلام: **"تعَجَّلوا الحجَّ فإنّ أحدكُم لا يدري ما يَعرِضُ لهُ»** [رواه أبو القاسم الأصبهاني]. فالحج للمرة الأولى فريضة وما بعدها نافلة، فمن إستطاع تكرار الحج بعد الحج فذلك خير. أما العمرة فعلى المؤمن أن يؤديها ولو مرة واحدة مع حجه، سواء كان مفردًا أو متمتعًا أو قارنًا. فإن إستطاع أن يؤدي غيرها في غير وقت الحج فتلك نافلة وفيها ثواب عظيم.

وحينما تسنح فرصة حج فرضًا أو نافلة أو فرصة العمرة، على المسلم أن يستغلها لزيارة مسجد رسول الله ﷺ والسلام عليه فزيارة قبره لمن لم يدركه كزيارته حيًا لأن الأنبياء أحياء في قبورهم.

٣٦ـ الجهاد في سبيل الله

عن أبي ذر ﷺ قال: قلت يا رسول الله أي العمل أفضل؟ قال:

«الإيمانُ باللّه والجهادُ فِي سَبيلِ اللّه» [متفق عليه]

الجهاد في سبيل الله هو بذل الوسع في سبيل مرضاة الله تعالى ويشمل قتال الكفار والمشركين والمنافقين والبغاة والمحاربين الآخرين، كقطاع الطرق ودفع المعتدين سواء كان ذلك في ساح القتال أو بالحجج واللسان أو الأموال أو بالدعوة والعلم. ويشمل جهاد المعتدين من إعتدى على العقيدة والشريعة والوطن والعرض والمال. والمجاهد الحق هو الذي ينذر حياته في سبيل الله ويؤثر مرضاته عزوجل على السلامة والراحة وهو يدعو الله أن يبلغه منازل الشهداء، ومثل هذا يستجيب الله تعالى له ويبلغه منازل الشهداء حتى وإن توفي على فراشه كما قال ﷺ في حديث آخر: **"من سألَ اللّهَ الشّهادة بصِدق بلّغَهُ منازلَ الشهداءِ وإن ماتَ على فِراشِهِ»** [رواه مسلم]. الجهاد بعضه أفضل من بعض، فأفضل الأعمال ساعة حضور الأعداء هو الجهاد، وعمل المرأة في بيتها هو جهاد، وكسب الرجل من الحلال إبتغاء التكفف عن سؤال الناس جهاد، وإتقان العامل واجبه جهاد ومجاهدة النفس وردعها عن الوقوع في الآثام جهاد في سبيل الله. وشرط صدق النية الخالصة في سبيل الله أمر أساس في كل ذلك. وليس القتال حمية أو عصبية أو إبتغاء كسب دنيوي جهاد في سبيل الله، حيث قال ﷺ: **"مَن قاتل لتكونَ كَلِمَةُ اللّهِ هي العُليا فهُو فِي سَبيلِ اللّه»** [متفق عليه]، والمؤمن الحق حين يقرأ في كل صلاة: ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام/ ١٦٢]، يتذكر أن ذلك عهد مع الله ببذل الجهد في الحياة كلها حتى الممات في سبيل الله. وليس معنى ذلك أن يتمنى المؤمن دخول المعارك والحروب بدون هدف واضح بل هو يكره سفك الدماء، لكن إذا قدّر الله تعالى ذلك صبر وثبت كما قال ﷺ: **"لا تتمنّوا لقاء العَدو فإذا لَقيتموهُم فاصبروا»** [متفق عليه] .والمجاهد في سبيل الله لا يبالي بنتيجة جهاده لأن النتيجة هي الخير دائما: ﴿ قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِ ﴾ [التوبة: ٥٢]، كما إن تحقيق النصر مقترن بنصرة المؤمنين لله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [سورة ﷺ: ٧]. وما على المجاهد سوى إعداد ما إستطاع من قوة وعدم التهاون في ذلك: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا

﴿ ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: ٦٠]. أما بعد ذلك فإن النتيجة موكولة إلى الله عزوجل وما يختاره هو الخير سواء كان نصرا أو شهادة.

٣٧ـ قراءة القرآن

عن عبد الرحمن بن شبل عن النبي ﷺ قال:

«إقرأوا القُرآنَ واعمَلوا بهِ ولا تجفوا عَنهُ ولا تغلوا فيه ولا تأكُلوا بهِ ولاتستكثِروا بهِ»

[رواه أحمد والطبراني والبيهقي وأبي يعلى][(١)]

قراءة القرآن من أفضل العبادات، وهي واسطة إستقبال أوامر الله تعالى بغية تنفيذها والعمل بما جاء فيها، ومن أهمل تلاوة كتاب الله فترة دون عذر فقد جفاه. وهَذه التلاوة يجب أن تكون إبتغاء وجه الله تعالى، لا للمفاخرة والمكاثرة والجاه أو إبتغاء متاع دنيوي زائل. والغلو في القرآن هو التمسك بتعصب بأمور لم يقصدها الشرع كالرهبانية أو الشذوذ في تفسير بعض الآيات قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٧٧]. العبادة في تلاوة القرآن متنوعة: فالتلاوة بالمصحف، وعن ظهر قلب، وترتيله، وفي الصلاة، وفي كل أوقات الفراغ، والاستماع إليه، وتعليمه وتعلم تفسيره وباقي علومه، كل ذلك عبادة، فتعظيم كتاب الله تعالى تعظيم لله والله عنده حسن الثواب. ويأمر ﷺ إضافة إلى العمل به وعدم الجفاء عنه أو الغلو فيه، عدم التكسب بتلاوته إبتغاء متاع دنيوي زائل.

كان عمر بن الخطاب ﷺ يقول لأبي موسى ﷺ: ذكِّرنا ربنا، فيقرأ عنده القرآن حتى يكاد يتوسط وقت الصلاة فيقال يا أمير المؤمنين الصلاة الصلاة فيقول أولسنا في صلاة؟ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

---

(١) أبو يعلى هو أحمد بن علي بن المثنى التميمي صاحب المسند الكبير، ولد سنة٢١٠هـ وتوفي سنة ٣٠٧.

٣٨- طلب العلم

عن أبي الدرداء ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مَن سَلَكَ طَريقا يَبتغي فيه عِلمًا سَلَكَ اللّهُ له طَريقًا إلى الجَنّة وإنّ الملائِكَة لَتضَعُ أجنِحَتها لِطالِبِ العِلمِ وإنّ العالِمَ ليَستغفِر لَهُ مَن في السَماواتِ وَمَن في الأرضِ حَتى الحيتانُ في الماء. وَفضلُ العالِمِ على العابِدِ كَفَضلِ القَمَر على سائر الكواكِبِ، إنّ العُلماءَ وَرَثةُ الأنبياء، إنّ الأنبياءَ لَم يُورِّثوا دينارًا ولا دِرهَمًا، إنّما ورّثوا العِلمَ فمَن أخَذَ بهِ أخَذَ بحَظّ وافِر» [رواه ابو داود والترمذي واللفظ له]

طلب العلم من أفضل العبادات وهو أفضل من النوافل خاصة إذا عمّ الجهل وقلّ العلماء وانتشرت البدع واتبع الناس الجهلة. وطلب العلم فريضة على كل مسلم ذكرًا كان أم أنثى فقد روي عن رسول الله ﷺ قوله " **طلب العلم فريضة على كل مسلم»** (وليس فيه كل مسلمة كما هو شائع، فالمسلم يشمل الذكر والأنثى - رواه الطبراني والبيهقي). وقدر العلم الذي هو فرض على كل مسلم هو بقدر ما يكفيهم من أداء عباداتهم ومعرفة ربهم وإكتساب معيشتهم. أما ما سوى ذلك فهو فرض كفاية يكفي أن يتخصص به بعض الناس وعند ذلك يسقط الفرض عن الباقين، أما إذا تركه الجميع فالإثم يعم كل من استطاع طلب العلم وقصّر في ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة/١٢٢].

وعظ رجل عمر بن عبد العزيز ﷺ فقال: إنه كان يقال إن إستطعت أن تكون عالمًا فكن عالمًا، فإن لم تستطع أن تكون عالمًا فكن متعلمًا، فإن لم تستطع أن تكون متعلمًا فأحِبَّهم، فإن لم تستطع فلا تبغضهم، فقال عمر: سبحان الله لقد جعل الله لنا مخرجًا. وقال سفيان بن عيينة(١): إن كان الرجل ليسمع الكلمة فيصير بها فقيهًا. وذلك بالطبع إذا وعاها وعمل بها وبلّغها، فإن من طلبة العلم من يتعلم علما لكنه لا يفقهه، فيحمله إلى من هو أفقه منه، كما قال ﷺ: " **نَضَّرَ الله امرءًا سمع مقالتي فوعاها، فرب مبلّغ أوعى من سامع»** [رواه الترمذي وإبن ماجه وأبو داود وأحمد]. وعن الحسن البصري: كان الرجل إذا طلب العلم لم يلبث أن يُرى ذلك في تخشُعه وبصره ولسانه ويده وصلاته وحديثه وزهده، وإن كان الرجل ليصيب الباب من أبواب العلم فيعمل به فيكون خيرًا له من الدنيا وما فيها لو كانت له فجعلها في الآخرة.

---

(١) أبو محمد سفيان بن عيينة، ولد بالكوفة سنة ١٠٧هـ، حفظ القرآن وهو إبن أربع سنين وكتب الحديث وهو إبن سبع، كان عالمًا جليلاً وزاهدًا ورعًا، سكن مكة وبها توفي سنة ١٩٨هـ.

والمؤمن يستمر بالتعلم حتى يوافيه أجله وهو يتواضع لمن علّمه ويحترم أهل العلم ويجلّهم فصفة العلم منسوبة إلى أحد أسماء الله الحسنى: العليم. وقد مدح الله الذين يعلمون: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨]. فطلب العلم ونشره ليس حكرًا على طبقة من الناس إتخذوا العلم مهنة. فلقد كان لأئمة هذا الدين من علماء الصحابة والتابعين وتابعيهم حِرَف يكتسبون منها رزقهم ويتعلمون العلم ويعلمونه الناس خالصًا لوجه الله تعالى بدون أية أجور. لذلك على المؤمن المحترف أن يعتبر طلب العلم وتعليمه واجبًا عليه قدر ما إستطاع، وليس ذلك حكرًا على من تفرغ للعلم واعتبره مهنة يكتسب منها رزقه، رغم جواز ذلك، بل هو اليوم ضرورة للتخصص في حقول معينة لا يستطيع إدراكها غير المختصين.

كما أن العلم بشكله العام لا ينحصر في علوم الآخرة وحدها، بل إن كل علم يفيد الناس في أمور دنياهم ومعيشتهم دخل تحت هذا الباب، لكن العلوم (الدنيوية والأخروية) بعضها أفضل من بعض، وبعضها أكثر وجوبًا من بعض حسب حاجة الناس إلى ذلك العلم في أمور آخرتهم أولا ثم في أمور دنياهم. ومما يدخل في علوم الآخرة من العلوم المكملة (كالبلاغة والصرف والنحو مثلا) ما هو أقل ضرورة من علوم الدنيا (كالطب إذا كثرت الأمراض واحتاج الناس إلى ذلك). ففي تعلّم وتعليم هذه العلوم عبادة إن أخلصت النية لله تعالى. فتخريج عدد كاف من الأطباء هو فرض كفاية لا يسقط عن الأمة ما دامت هناك حاجة للمزيد منهم، وكذلك بقية التخصصات الضرورية.

٣٩ـ دوام ذكر الله

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :

"يقول الله تبارك وتعالى: إذا ذكَرني عَبدي في نفسِهِ ذكَرته في نفسي، وإذا ذكَرَني في ملأ ذكَرتهُ في مَلأ خيرٍ مِن ملأهِ، وإذا تقَرَبَ مني شبرًا تقَرَبتُ مِنهُ ذراعًا، وإذا تقَرّبَ مني ذراعًا تقَرّبتُ منهُ باعًا، وإذا مشى إليّ هروَلتُ إليهِ» [متفق عليه]

ذكر الله على كل حال من أفضل العبادات، قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾[آل عمران: ١٩١]، فالذكر لا يعيقه سفر ولا عمل بدني لأن مكانه القلب والمساعد فيه اللسان، ولذلك قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال في الجهاد:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[الأنفال: ٤٥]، ولفظ الكثرة لافت للأنظار في هذه الآيات وفي غيرها كقوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقد ذم الله تعالى المنافقين رغم ذكرهم الله عزوجل فقال: ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [النساء: ١٤٢]. فعلى المؤمن أن يكثر من ذكر الله في كل وقت، ففي ذلك تذكرة له بربه ومن ثم بطاعته واجتناب معصيته وبعد عن الغفلة. وعلى المرء ان يكثر من ذكر الله في كل أحواله لأنه لا يعلم متى تأتيه المنية وبعد ذلك يتحسر كيف مرت به ساعة لم يشغلها بذكر الله تعالى. قال ﷺ حين سُئل عن أفضل الأعمال فقال :"**أن تموت ولِسانكَ رَطب بذِكرالله عزّ وجلّ**» [أخرجه إبن حبان والطبراني والبيهقي][1].

إذا ذكر العبد ربه نال منزلة عالية عند الله تعالى حين يذكره الله تعالى في الملأ الأعلى إن كان ذكر الله في ملأ، أو يذكره الله في نفسه إن كان ذكره منفردًا ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٥٢]. والعبد الصالح يذكر ربه كلما وجد إلى ذلك سبيلاً. يقول الشبلي[2]:

ذكرتك لا أني نسيتك لمحة	وأيسر ما في الذكر ذكر لساني
وكدت بلا وجد أموت من الهوى	وهام عليّ القلب بالخفقان
فلما أراني الوجد إنك حاضري	شهدتك موجودًا بكل مكان
فخاطبت موجودًا بغير تكلم	ولاحظت معلومًا بغير عيان

فإذا أكثر العبد الذكر مع تطبيقه أوامر الله تعالى الأخرى واجتناب نواهيه، وصل مرتبة الإحسان حين يعبد الله كأنه يراه كما مر في الحديث (٣٠).

وهكذا يَعذُب الذكر للذاكر بعد أن يكابده فترة تطول أو تقصر. يقول الحسن البصري: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة والذكر وقراءة القرآن فإن وجدتم وإلاّ فاعلموا أن الباب مقفل (أي بسبب معاصيكم). وإن من الذكر ما يفضل غيره في أوقات معينة. فالتسمية قبل الطعام والحمد بعده، والتسبيح والتحميد والتكبير عقيب الصلوات الخمس وأذكار الصباح والمساء وغير ذلك من الذكر المسنون أفضل ما يقال في تلك الأحوال. أما الذكر العام الذي يفضل غيره بصورة عامة فهو قول لا إله إلاّ الله. ويشمل هذا الحديث ذكر الله مجتمعًا بالتسبيح والتحميد والتهليل بعد

---

(١) إبن حبان هو أبو حاتم بن محمد بن أحمد بن حبان التميمي البستي. تولى قضاء سمرقند وكان عالمًا بالطب والفقه واللغة إضافة إلى الحديث والوعظ. توفي سنة ٣٥٤هـ.

(٢) أبو بكر بن جحدر الشبلي، خراساني الأصل، بغدادي المولد والمنشأ، تاب في مجلس خير النساج وصحب الجنيد ومن عاصره، كان عالمًا فقيهًا على مذهب مالك، كتب الحديث، عاش ٨٧ سنة ومات سنة ٣٣٤هـ ببغداد.

الصلوات وقبل الانصراف أو الذكر بصوت واحد أو الذكر منفردًا، والمؤمن الحق يكون مع الله لحظة ذكره مستجمعًا فكره في ما يذكره خاشعًا وجل القلب، فيكون من الذين ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾[الأنفال: ٢]

٤٠ـ الدعاء

عن النعمان بن بشير ﷺ عن النبي ﷺ قال:

"الدُعاءُ هُوَ العِبادة "ثم قرأ قوله تعالى: " وقال ربّكم ادعوني أستجب لكُم إن الّذينَ يَستكبرونَ عَن عِبادَتي سيَدخلونَ جهَنّمَ داخرين» [غافر: ٦٠]

[رواه أصحاب السنن والحاكم وقال الترمذي صحيح الإسناد]

قال بعض العلماء: لقد ذم الله تعالى قومًا تركوا الدعاء ووصفهم بالنفاق في قوله تعالى: **"وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ»** [التوبة: ٦٢]، ولذلك فإن على المؤمن أن يدعو ربه ويكثر من ذلك سواء إستجيب دعاءه أم لا. وقال عمر بن الخطاب ﷺ: إنني أهتم لكي ألهم الدعاء (أي الدعاء المناسب لكل حالة) فإذا ألهمت الدعاء لم أهتم هل أجيب دعائي أم لا. ولئن يدعو المرء فلا يستجاب له خير من أن لا يدعو، لأن دعاءه هذا هو عبادة يثاب عليها سواء استجيب له أم لا.

إن من الصالحين من جعله الله مستجاب الدعوة كما أثر عن بعض الصحابة كسعد بن أبي وقاص ﷺ وغيره، لكن عدم إجابة الدعاء قد تعني سوء حال الداعي فلا يعبأ الله بدعاءه وقد تعني أن الله قد أخر إجابته إلى يوم القيامة لكي يرفع من مكانته، خاصة إذا كان الدعاء متعلقًا بأمر دنيوي عاجل، ففي الخبر المروي أن النبي ﷺ قال: **"إن العَبدَ يدعو اللّهَ تعالى وهو يُحِبُّهُ فيقول ياجبريل أخِّر حاجَة عَبدي فإني أحِبّ أن أسمَعَ صوتَهُ، وإنّ العَبد ليدعو اللّهَ وهُو يُبغِضُهُ فيَقولُ يا جبريل إقضِ لِعَبدي حاجَتهُ فإنّي أكرَهُ أن أسمَعَ صوتهُ»**[1].

من الدعاء دعاء مستجاب كدعاء النبي لأمته، والوالد لولده، والمظلوم على من ظلمه، والأخ لأخيه في الله بظهر الغيب، والدعاء مستجاب في جوف الليل، وعند السجود فإن العبد يكون أقرب ما يكون من الله وهو ساجد. وكذلك الدعاء عند شرب ماء زمزم. وأفضل الدعاء ما كان عامًّا للمسلمين في مصالح آخرتهم أو دنياهم[2]. إن الدعاء العام يشبه الشفاعة، فإذا لم يكن الداعي صاحب تقوى وصلاح بحيث يستحق أن يستجيب الله لما دعى لغيره، فإن الله لا يأبه بدعائه. قال أنس بن مالك ﷺ[3] (ورفع ذلك الى النبي في بعض الروايات): **"يأتي على الناس زمان يدعو المؤمن**

---

(١) ذكره الإمام القشيري في رسالته ولم أجده في كتب الصحاح.

(٢) شروط الدعاء المستجاب وأفضل الدعاء، راجع كتاب هذا القرآن في مائة حديث نبوي للمؤلف، شرح الحديثين ١٣و٥٨.

(٣) كتاب الزهد لعبد الله بن المبارك المروزي ﷺ .

للجماعة فلا يستجاب له، يقول الله أدعني لنفسك ولما يحزبك من خاصة أمرك فأجيبك، وأما الجماعة فلا، إنهم أغضبوني». ونعوذ بالله من غضبه. فهذا المؤمن الذي يدعو لقوم لا يستحقون أن يبدّل الله أحوالهم، لا يستجيب الله لدعائه لهم بل يستجيب دعاءه لخاصة نفسه فقط.

إن على المسلم أن يحفظ بعض الدعاء المأثور عن رسول الله ﷺ ودعاء أصحابه والسلف الصالح، وأن يتخير من دعائه أفضله ولا يدعو على الناس بالشر إنتقامًا لنفسه، بل يكثر من صالح الدعاء لنفسه ولغيره بالهداية والاستقامة.

٤١ـ الإكثار من الصلاة على رسول الله ﷺ

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : **"إنّ أولى الناس بي أكثرُهُم عليّ صلاةً»** [رواه إبن حبان والترمذي وقال حسن غريب]

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، والصلاة على النبي ﷺ دعاء له بل من أفضل الدعاء وذلك تعظيمًا لقدره واعترافًا بفضله على البشرية أجمع. والصلاة على النبي من الدعاء المستجاب لا محالة لأن مكانة رسول الله ﷺ عند الله عظيمة والله تعالى هو الذي أمرنا بتلك الصلاة فكيف لا يحقق أمرًا هو الذي أمر بأن نطلبه منه. قال الشاعر:

أدِمِ الصلاة على النبي محمـــد   فقبـــولـــها حتـم بغيـر تـــردد
أعمـــالنـا بين القبول وردها   إلاّ الصلاة على النبي محـــمد

لذلك قال بعض العلماء أن الصلاة على النبي لا يدخلها الرياء ولا بأس أن يسِرّ المرء بها أو أن يعلنها. فهي تأدية حق له واجب علينا وليس تكرما منا عليه، لذلك كان مَن ترك الصلاة عليه حين يُذكر إسمه ﷺ بخيلا: **"البَخيلُ مَن ذكِرتُ عِندهُ فلَم يُصَلّ عَليّ»** [رواه الترمذي وقال حسن صحيح] ويستحب أن يتضمن كل دعاء الصلاة على رسول الله ﷺ في أول الدعاء وفي آخره، لأن الله إذا إستجاب الصلاة في أول الدعاء وآخره فهو أكرم من أن يرد الدعاء الذي بينهما .

وتمام الصلاة على النبي ﷺ يجب أن تتضمن الصلاة على آله فذلك ثابت بنص الأحاديث الشريفة. ويستحب إضافة الصلاة على صحبه أيضًا لما ثبت من إجماع المسلمين على إستحباب ذلك.

٤٢ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ قال: **"والذي نفسي بيَدِهِ لتأمُرُنَّ بالمعروفِ وَلتنهوُنَّ عَنِ المُنكرِ أو ليوشِكُنَّ اللهُ أن يَبعَثَ عليكم عِقابًا مِنهُ ثمّ تدعونَهُ فلا يُستجابَ لكُم».** [رواه الترمذي وقال حسن صحيح]

مدح الله تعالى هذه الأمة بوصفها خير أمة: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فالآية واضحة بربط سبب التفضيل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإذا ما تركت الأمة ذلك فقد فقدت سبب التفضيل وبذلك إستحقت غضب الله تعالى وعقابه وإبتلائها بعدم إستجابة الدعاء حتى من صالحيها الذين تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. كما قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ [هود: ١١٦]. ويعني ذلك أن الذين كانوا ينهون عن الفساد في الأمم السالفة هم الناجون وهم أقلّة.

وقد ذم الله تعالى بني إسرائيل لأنهم تركوا النهي عن المنكر. عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "**إنّ أولَ ما دخل النقصُ على بني إسرائيل أنه كانَ الرجُلُ يَلقى الرَجُلَ فيقول يا هذا إتقِ الله ودَع ما تصنعُ فإنهُ لا يَحِلُ لَكَ، ثمّ يَلقاهُ مِنَ الغَدِ وهُوَ على حالِهِ فلا يَمنَعُهُ ذلك أن يكونَ أكيلَهُ وشَريبَهُ وقَعيدَهُ، فلمّا فعَلوا ذلكَ ضَرَبَ اللهُ قلوبَ بَعضِهِم ببعض»**، ثُم قال: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[المائدة: ٧٨-٨١]، ثم قال: "**واللهِ لَتأمُرُنَّ بالمعروفِ ولتنهوُنَّ عَنِ المُنكَرِ ولَتأخُذُنّ على يَدِ الظالِمِ ولَتأطُرُنّهُ على الحَقّ أطرًا، ولَتقصُرُنّهُ على الحَقّ قَصرًا أو ليَضرِبَنّ اللهُ بقُلوبِ بَعضِكُم على بَعض ثمّ ليَلعَنَكُم كما لَعَنَهُم»**

[رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن].

وباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باب واسع لأنّه يشمل باب الدعوة إلى سبيل الله كله: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥] إنّ أولَ الصفات التي يجب أن يتصف بها من يأمر بمعروف أن يكون هو نفسه متصفًا به، وإذا ما نهى عن منكر يكون هو نفسه منتهيًا عنه، وإلا كان ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤]، والناس يتعلمون من الأفعال ما لا يتعلمون من الأقوال. وفي أمر رسول الله للمسلمين في صلح الحديبية عظة بالغة. حيث لما فرغ من عقد الصلح وتوقيع الكتاب أمرهم بالنحر والحلق، فما قام منهم رجل، حتى قالها ثلاثًا حيث لم يتوقعوا أن تكون نهاية عمرته العودة بهذه الصيغة. فدخل رسول الله ﷺ على أم سلمة فذكر ما لقي من الناس، فقالت: يا نبي الله أتحب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بُدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج وفعل ذلك، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمّا(١).

وهكذا يجب أن يكون دأب من أمر أو نهى وخاصة إذا كان وليًا لأمر من أمور المسلمين مهما كان ذلك صغيرًا، فإن طبق الأمر على نفسه إنقاد له الناس بيسر وأطاعوه.

فالمؤمن يأمر بالمعروف وإذا رأى منكرًا نهى عنه أو قوّمه بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان، كما قال ﷺ **"من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»** [رواه مسلم وأصحاب السنن وأحمد]. ومن رأى منكرًا فرضي به كان كمن شارك في فعله، ومن حضر المنكر فغيره بيده أو بلسانه فله أجر الداعي في سبيل الله ويثاب على قدر نيته، فإن لم يستطع إنكاره إلاّ بقلبه كان كمن غاب عن ذلك المنكر فلا إثم عليه. لكن مجالسة أهل المنكر ومخالطتهم وعدم الإنكار العلني عليهم تورث قساوة في القلب بحيث يعتاد المرء على المنكر حتى يكاد يظن أنه أمر هين، وذلك ما دخل على بني إسرائيل.

كما أن من الدعوة في سبيل الله نصح ولاة الأمر أهل السلطان، فإن كان بينهم ظالمًا فعلى الأمة أن تأخذ على يده وتنكر فعله وتجبره على العدول عن الظلم، وهو ما قال عنه رسول الله ﷺ: **"ولتأطرُنّهُ على الحق أطرًا»** (فذلك فرض كفاية على الأمة) إن قام به البعض قدر ما فيه الكفاية، سقط عن الباقين. أما إذا لم يقم به أحد، أثم الجميع. وهذا هو مقياس إستقامة الأمة أو مدى بعدها عن جادة الحق، فإن كانت

---

(١) راجع كتب السيرة النبوية: فقه السيرة للدكتورسعيد رمضان البوطي، والسيرة النبوية، والآثار المحمدية لأحمد زيني.

كذلك إستحقت أن لا يستجيب الله دعاء صالحيها، وأن يعمّها الله بعذاب من عنده، وما ذلك إلاّ بما قدمت أيديها.

٤٣ـ التفكر في خلق الله

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال بتّ عند خالتي ميمونة فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ.. ﴾ إلى آخر سورة آل عمران، ثم قام فتوضأ واستنّ فصلى إحدى عشرة ركعة، ثم أذّن بلال فصلى ركعتين، ثم خرج فصلى الصبح. [رواه البخاري]

التفكر في خلق الله تعالى عبادة. وهذا فعل رسول الله ﷺ بنظره إلى السماء وتلاوته هذه الآيات من آخر سورة آل عمران. سُئلت أم الدرداء[١]: أي عبادة أبي الدرداء أكثر؟ قالت: التفكر والاعتبار. وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: الفكرة في نعم الله عزوجل من أفضل العبادة. وقال إبن عباس رضي الله عنهما: التفكر في الخير يدعو إلى العمل به والندم على الشر يدعو إلى تركه.

زار الإمام الشافعي الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنهما وكان الإمام أحمد كثيرًا ما يذكر الشافعي بخير بحضور إبنته، فقررت مراقبته حين يبيت في بيتهم لتعرف شيئًا عن عبادته، فرأته أوى إلى فراشه بعد صلاة العشاء ومكث كذلك حتى نودي لصلاة الفجر فقام وصلى دون أن يتوضأ، فأخبرت أباها بذلك، فسأله كيف كانت ليلتك فقال خيرًا والحمد لله، تفكرت في سبعين مسألة من العلم فيها خير للمسلمين. وكان رضي الله عنه يقول: إستعينوا على الكلام بالصمت وعلى الإستنباط بالفكر.

إن إتساع علم الإنسان اليوم يضع على عاتق المسلم واجبًا بأن يزيد من تفكره في عجائب خلق الله ليزداد معرفة ويقينًا. إن العلم المأثور من قرآن وسنة وآثار من سار على نهجهما، يؤخذ من الكتب أو السلف الصالح. أما التفكر فيزيد الإيمان رسوخًا ويدخل الاطمئنان للقلب ويزيد العلم فوق المأثور. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١]. وهكذا يقع على عاتق مفكري هذه الأمة

---

(١) أم الدرداء هي خيرة بنت أبي حدرد زوجة أبي الدرداء عويمر الأنصاري، كانت من فضلى النساء، حفظت عن النبيﷺ، وروى عنها وعن زوجها جماعة من التابعين، توفيت قبل أبي الدرداء وتدعى أم الدرداء الكبرى، ثم تزوج بعدها هجيمة وتدعى أم الدرداء الصغرى، وهي المقصودة هنا، وقد توفيت بعد أبي الدرداء وروت عنه، قالت لأبي الدرداء قبل موته: إنك خطبتني في الدنيا من أَبَوَيَ فأنكحوني، وأنا أخطبك إلى نفسك في الآخرة، فقال لها فلا تنكحي بعدي، فوفت بذلك حين خطبها معاوية من بعده فأبت.

وحكمائها وعقلائها واجب التفكر في مصالح الأمة وعرض نتائج أفكارهم بطريقة يمكن الاستفادة منها إستفادة قصوى. فإن هموم الأمة ومصائبها لا تعالجها إلاّ عقول متفتحة تستمد نورها من تقوى الله، وتفتح بصيرتها على ما حصلت عليه الأمم الأخرى من علوم. فالبحث العلمي المستند إلى هذين الأساسين والذي يهدف خير الأمة في آخرتها ودنياها هو عبادة لأنه إعمال للفكر وشكر لله على نعمة العقل التي أنعم الله بها على أولي الألباب. كما أن التفكر في عجائب المخلوقات نتيجة ما حصل الإنسان عليه مؤخرًا من علوم حديثة يزيد المؤمن ايمانًا ويجعل قلبه مطمئنًا ويقف مبهورًا أمام عظمة الله غير المتناهية ويدرك ضعف الإنسان أمام تلك القدرة الجبارة.

٤٤ـ دوام الشكر

عن ثوبان[١] ﷺ قال: قال النبي ﷺ :

"لِيَتخِذ أحدُكُم قلبًا شاكرًا ولسانًا ذاكرًا وزوجة مؤمِنة تعينهُ على أمر الآخرة»

[رواه أحمد والطبراني وإبن ماجه]

الشكر حقيقة هو الاعتراف بنعمة الله تعالى على وجه الخضوع مع الاعتقاد أن الشكر نفسه هو نعمة من الله تستحق الشكر مرة أخرى. قال داود عليه السلام: إلَهي كيف أشكرك وشكري لك نعمة من عندك؟ فأوحى الله إليه الآن قد شكرتني. ويقال أن الشكر على الشكر أتم من الشكر على النعم الأخرى وذلك بأن ترى أن الشكر بتوفيقه يستحق الشكر، وهذا الشكر يستحق الشكر مرة أخرى... إلى ما لا نهاية. قال الجنيد[٢]: الشكر أن لا يستعان بشيء من نعم الله تعالى على معاصيه. ومن أسماء الله الحسنى الشكور، ومعناه أنه يجازي عباده على الشكر ويعطي الكثير من الثواب على القليل من العمل.

الشكر عبادة، وهو من عبادات القلوب قبل الألسنة، لكن له دلائل تخبرك بصدق الباطن. من هذه الدلائل كثرة العبادة، فلقد كان رسول الله ﷺ يقوم بالليل حتى تورمت قدماه وهو يعلم أن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ولما سئل عن ذلك قال: **«أفلا أكونُ عَبدًا شكورًا»** [رواه مسلم]. ومن دلائل الشكر لله تعالى على نعمه الكثيرة عدم إزدراء حتى النعم القليلة، ومنها أيضا شكر الناس على إحسانهم مهما قلّ فمن لا يشكر الناس لا يشكر الله. وقد تعهد الله سبحانه وتعالى بالزيادة للشاكرين فقال:

---

(١) ثوبان مولى رسول الله ﷺ، إشتراه ثم أعتقه، فخدمه إلى أن مات، ثم تحول إلى الرملة ثم حمص ومات بها سنة ٥٤هـ. كان لا يسأل أحدًا شيئًا، عملاً بما سمعه من رسول الله ﷺ: " **من يتكفّلُ أن لا يَسألَ النّاسَ شيئًا أتَكَفّلُ لَهُ بالجَنَّةِ** " رواه أبو داود والحاكم.

(٢) الجنيد هو أبو القاسم بن محمد المعروف بالبغدادي. كان أبوه يبيع الزجاج، لذلك يعرف بالقواريري. أصله من نهاوند ومولده ونشأته في العراق. كان فقيهًا يفتي على مذهب أبي ثور. صحب خاله السري السقطي والحرث المحاسبي. توفي سنة ٢٩٧هـ في بغداد.

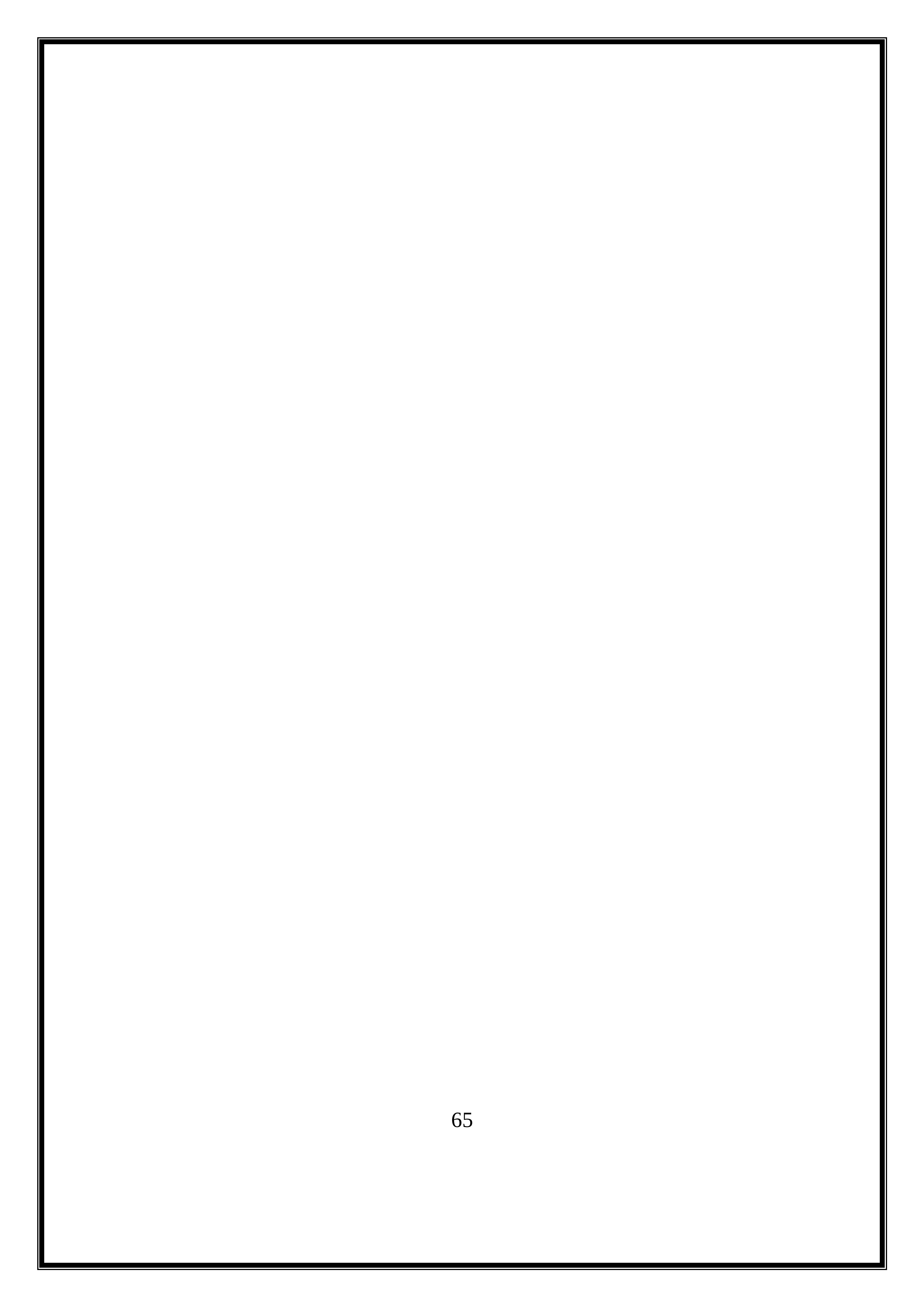
﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴾ [إبـــراهيم: ٧]، فجعل الشكر عكس الكفر. ومن دلائل الشكر أيضًا إظهار نعم الله على العبد، فالله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ،كما ورد في قوله عليه الصلاة والسلام: "**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**» [رواه الترمذي والحاكم] شرط أن لا يكون ذلك مباهاة أو رياء أو سمعة. والشكر بالأفعال هو أبلغ من الشكر باللسان. فشكر نعمة المال الصدقة، وشكر الصحة إتعاب البدن في مرضاة الله وشكر نعمة الجاه قضاء حوائج الناس،فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «**ما أنعم الله على عبد نعمة فأسبغها عليه، ثم جعل إليه حوائج الناس فتبرم بها إلاّ وقد عرض تلك النعمة للمهالك**» [رواه الطبراني في الأوسط والعقيلي في الضعفاء والدارقطني] والزوجة المؤمنة الصالحة هنا خير ما يعين المرء على أمور دينه في الدنيا من حفظ لنفسها وطمأنة لزوجها وحسن تربية لولدها، وهي نعمة عظيمة تستحق الشكر الكثير لمن أوتيها. ويحث الرسول ﷺ في هذا الحديث على تخير الزوجة المؤمنة لأن ذلك مفتاح لنعم وأعمال صالحة كثيرة أخرى.

٤٥ـ دوام فعل الخير

عن أبي ذر ﷺ قال: قيل يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم فقال: "**أوَ ليسَ قد جعَلَ اللّهُ لَكُم ما تصدَّقون؟ إنّ لكُم بكُلِّ تسبيحَة صَدَقَة وَبكُلِّ تكبيرَة صَدَقَة وَبكُلِّ تهليلَة صَدَقَة وبكُلِّ تحميدَة صَدَقَة وأمر بمَعروف صَدَقة وَنَهي عَن مُنكَر صَدَقَة وَفي بضع أحَدِكُم صَدَقة**»، قالوا يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته يكون له فيها أجر؟ فقال: "**أرأيتم لو وَضَعَها في الحَرام أليسَ كانَ يكونُ عليهِ وِزر؟** "**قالوا بلى، قال:** "**فكذلك إذا وَضَعَها في الحلالِ يَكونُ لَهُ الأجرُ**» [رواه مسلم وأبو داود وأحمد]

إن ما يفعله المؤمن في حياته من أكل وشرب واكتساب للرزق وتمتع بالطيبات، كل ذلك ينقلب إلى عبادة إذا صدقت النية. فعلى المؤمن أن يكون حاضر النية على الدوام متذكرًا ربه، فلا يعمل عملاً إلاّ وهو مؤمن بما فيه الأمر من الحكم ولا يترك شيئا إلاّ وهو مؤمن بما فيه من الترك من الحكم لله، فإذا كان هذا حاله فإنه في كل لحظة من لحظاته مع الله تعالى، فهو في عبادة دائمة. فالترويح عن النفس ولقاء الصديق الصالح ولبس الثوب الجميل، كل ذلك عبادة قد تزيد في ثوابها عن صلاة تطوع مع كراهة النفس لها وذلك بفضل حضور النية في تلك الأفعال. كما مر في الحديثين (١ و ٢٥). يعكس هذا الحديث التداخل التام بين أعمال الآخرة وأعمال الدنيا في هذا الدين. فليس هناك فصل بينهما لأن الكل لله. ولفظة الدين تشمل ذلك كله، لأن ما جاء به رسول الله ﷺ من كتاب من عند الله وهدي نقله إلينا عن دقائق حياته، أعطى المسلمين المثال الحي للعيش في هذه الدنيا على أساس أنها جزء من حياة طويلة تشمل الحياة الدنيا والحياة بعد الموت، فالله تعالى قد خلق الإنسان للعبادة:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وهكذا يتصرف المؤمن الصادق على أن كل لحظة من لحظاته هي عبادة لله سواء كان مؤديًا لفرض إفترضه الله عليه لخدمة آخرته أو دنياه، فهما سواء، لكنه إذا خُيّر غيره فاختار تقديم مصالح الدنيا على مصالح الآخرة فهو يختار مصالح الآخرة على مصالح الدنيا دون أن ينسى نصيبه من الدنيا: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٧].



الباب الرابع
الاستقامة في اجتناب المعاصي

٤٦ـ إجتناب الآثام

عن النواس بن سمعان ﷺ قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: "**البِرُ حُسنُ الخُلُق، والإثمُ ما حاكَ في صَدرِكَ وكَرِهتَ أن يَطَّلِعَ عليهِ النّاسُ».** [رواه مسلم]

إن تعريف الإثم الوارد في هذا الحديث تعريف ينبع من داخل النفس، لا بحسب فتاوى المفتين أو أهواء أهل ألأهواء. إن من الناس من يقصد هذا العالم أو ذاك المفتي يسأله ويحس بأن ما يطلب الفتوى فيه للشرع جواب معين لا يحبه هو، فيريد من غيره أن يشجعه على الإثم. فتراه يحاول انتزاع الفتوى من فم غيره تارة بالجدال وتارة بصياغة السؤال بطريقة بحيث يحصل على الجواب الذي يريده. وهذا لا يغني من الحق شيئًا ولا يحل حرامًا، فالإثم ما حاك في الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس وهو تعريف يستطيع كل شخص أن يميز بواسطته بين الحق والباطل بشرط الصدق مع النفس. كما يدأب بعض الناس على التحايل على الشريعة بفتاوى توافق أهواءهم كما فعل بنو إسرائيل حين منعوا من الصيد في السبت، فحبسوا السمك وصادوه يوم الأحد وحينما حرمت عليهم أصناف من الأنعام استحلوا شحومها. فمثل هذا التحايل لا يحل حرامًا ولا يقلل إثمًا لأن الله تعالى يعلم ما تخفي الصدور.

وبداية المعصية تكون خاطرة عابرة. يقول إبن القيم الجوزية(١) في كتاب الفوائد: دافِع الخطرة، فإن لم تفعل صارت شهوة، فحاربها، فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمّة، فإن لم تُدافعها صارت فعلاً، فإن لم تتداركه بضده صار عادة فيصعب عليك الانتقال عنها.

إن المعاصي التي نهى عنها الله عزوجل ورسوله ﷺ واضحة للمؤمن، فهو يفر منها ولا يقترب منها. لكن الشيطان لا يدع إبن آدم دون أن يحاول تزيين السيئات له. أما عباد الله المخلصين فهم يقظون على الدوام، فإذا ما وسوس لهم الشيطان سوءًا تذكروا فإذا هم مبصرون، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، وهذه الوسوسة هي بداية الإثم وهي من الصغائر التي يغفرها الله إن لم يتبعها فعل. فالمؤمن حذر مراقب لنفسه سواء في أقواله أو في أفعاله

(١) إبن القيم الجوزية: هو شمس الدين محمد بن بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي الفقيه الحنبلي، ولد سنة ٦٩١هـ، لازم شيخه تقي الدين بن تيمية رحمه الله. كان عالمًا فقيهًا ومفسرًا صلبًا في الدفاع عن آرائه، له تآليف قيمة كثيرة منها: زاد المعاد، والكلم الطيب، والفوائد، وزاد المسافرين، وأعلام الموقعين، وبدائع الفرائد، وحادي ألارواح، وعدة الصابرين، والروح، وتهذيب سنن أبي داود... وغيرها كثير. توفي رحمه الله سنة ٧٥١هـ.

أو في خواطره. فإذا ما خطر له خاطر سوء، ذكر الله تعالى وعدل عن فعل المعصية فتكتب له حسنة، كما مر في الحديث(١).

يجب على المسلم أن يهتم بالابتعاد عن النواهي التي نهى الله عنها أو نهى عنها رسوله ﷺ حتى أكثر من إهتمامه بإتباع الأوامر. فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: "فإذا أمَرتُكُم بشيء فأتوا منهُ ما إستَطَعتُم وإذا نَهيتُكُم عن شيء فدَعوهُ» [رواه مسلم].

٤٧ـ إجتناب عقوق الوالدين وقول الزور

عن أبي بكرة[١] رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: **«ألا أنبِّئكُم بأكبَرِ الكَبائر - ثلاثا؟»** قلنا بلى يارسول الله، قال: "**الإشراكُ باللهِ وعُقوقُ الوالِدين**»، وكان متكئًا فجلس، فقال: "**ألا وقولُ الزورِ وشَهادةُ الزور**» فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت. [متفق عليه]

الكبائر هى الذنوب العظيمة التي يلحق بالمرء إثم كبير إذا إرتكبها وقد يترتب عليه عقوبة شرعية أو كفارة. وأعظم الذنوب على الإطلاق هو الشرك بالله شركًا واضحًا كادعاء الولد. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨]. ومن أشرك بالله فقد كفر. ويتبع ذلك من إرتدّ عن الإسلام بإعلانه ذلك، أو بإنكاره معلومًا من الدين كالنبوة أو الملائكة أو التكذيب بآيات القرآن وما شابه ذلك. أما الكبائر الأخرى فقد تم تحديدها في هذا الحديث وفي بعض الأحاديث الأخرى. لكن من بين تلك الكبائر ما هو من أكبرها فليست الكبائر كلها متساوية.

ومن أكبر الكبائر عقوق الوالدين، وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣- ٢٤]، وفي الوقت الذي دعى الله سبحانه وتعالى إلى عدم تولي الكفار فإنه أوصى بمصاحبة الوالدين في الدنيا بالمعروف وبرهما حتى وإن كانا كافرين واستثنى إطاعتهما إن هما أمرا بالشرك بالله: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان: ١٥].

---

(١) أبو بكرة هو نفيع بن الحرث كان من فضلاء الصحابة. تدلى إلى النبي صلى الله عليه وسلم عند حصاره الطائف بواسطة بَكَرة فاشتهر بأبي بَكَرَة. روى عن النبي ﷺ وروى عنه أولاده. سكن البصرة.

أما الكبيرة الأخرى التي ذُكرت في هذا الحديث فهي شهادة الزور وقول الزور، لما يترتب عليها من كثير آثام مفاسد، كأخذ الأموال بغير حق والظلم والتباغض والشقاق والخصام وربما الاقتتال. وعلى المؤمن أن يحذر من شهادة الزور وقول الزور أشد الحذر، فإن ذلك لا ينحصر في الشهادة بين المتخاصمين أمام القضاء فقط، بل يدخل في كثير من المعاملات التي يتعامل بها الناس وتتضمن أكلاً لأموالهم بغير حق أو ظلمًا للناس. فمن أعان الظالم على ظلمه بكلمة يعلم أنها كذب، فهي شهادة زور. وإن مدح معتديًا فشجعه على عدوانه فهو قول زور ومشاركة في إرتكاب العدوان وهكذا وقد عُدِّدَت أكبر الكبائر في الحديث الآتي (٤٨)، وفيه سماها رسول الله ﷺ بالسبع الموبقات.

٤٨ـ إجتناب السبع الموبقات

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :

"إجتنِبوا السَبعَ الموبقاتِ: الشِركُ باللّه، والسِحرُ، وقتلُ النفسِ الّتي حرّمَ اللّهُ إلاّ بالحَقّ، وأكلُ الرّبا، وأكلُ مالِ اليتيمِ، والتولّي يومَ الزّحفِ، وَقذفُ المُحصَناتِ المُؤمِناتِ الغافِلاتِ» [رواه أبو داود والنسائي والبيهقي]

هنا تعداد لسبع من الموبقات. وتحديد العدد هنا هو ليس حصرها بالسبع تحديدًا بل هذه السبعة هي من أكبر الكبائر، وقد مر بنا أن عقوق الوالدين أيضًا من أكبرها رغم أنه غير مذكور في هذا الحديث. وقد سُئل ابن عباس ﷺ عن عددها أهي سبعة؟ فقال هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع. وبالطبع فإن كثيرًا من الكبائر هذه هي إهمال الفرائض. فالصلاة فريضة وتركها كبيرة، وكذلك الزكاة فريضة وتركها كبيرة، والصيام فريضة وتركه كبيرة وحجاب المرأة فريضة وتركه كبيرة... وهكذا.

من الكبائر التي ذكرت هنا قتل النفس بغير حق، فللنفس حرمة كبيرة، قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣]. واشتراك أكثر من شخص واحد بذلك لا يقلل الذنب عن أي منهم فكلهم قاتل. وقد حذّر ﷺ من الاعانة على القتل والخصام، فقال: **"مَن أعانَ على خصومَةٍ لَم يَزَل في سَخَطِ اللّهِ حتى يَنزِع»** [رواه إبن ماجه والحاكم]. والقتل من الظلم في النفوس. أما الظلم في الأموال فالربا أحدها، وقد شدد الله على تعاطي الربا في عدة آيات منها قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٧٥-٢٨١]، وقد شدد رسول الله ﷺ في وعيد آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهده [رواه أحمد والترمذي وأبو داود وإبن ماجة]. ولم يتهاون في اليسير من

الربا فكل قرض جرّ نفعًا فهو ربًا، وكل الربا محرم حيث قال: "**الرّبا سَبعونَ بابًا أهونُها كوَقعِ الرجُلِ على أمهِ**» [رواه إبن ماجه والبيهقي] .وأكل مال اليتيم هو من أبشع أنواع الظلم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠]، وإن من المروءة الإحسان إلى الضعفاء كافة، كاليتيم والمريض والأرملة والشيخ العاجز، وهو ما تأخذ به الشرائع الدنيوية، لكن ما يريده الله فوق كل ذلك حسن المعاملة الفردية من كل مسلم، وهو ما لا تستطيع أن توفره القوانين لأنه أمر ينبع من الأيمان بالله وإبتغاء الثواب منه والخوف من عقابه.

أما الفرار يوم الزحف (في المعركة) هو جريمة بحق الأمة كلها لأن فرار الفرد الذي يكون جزءًا من جسد الجيش المقاتل، قد يتسبب في إدخال الوهن إلى قلوب أفراد آخرين ومن ثم قد يتسبب في خسارة المعركة وما يتبع ذلك من سفك المزيد من الدماء وإستباحة للحرمات وغير ذلك. إنّ عقوبة الإعدام التي تأخذ بها بعض القوانين لمن يفر من المعركة قد لا تجدي نفعًا، لأن الفار يمكن أن يختار بين موت محقق آني وموت مؤجل محتمل فيفر. أما إذا كان قد دخل المعركة مجاهدًا في سبيل الله موقنًا بأن وراء الفرار عذاب أليم يوم القيامة الذي لا بد أن يلاقيه فإنه سيختار الثبات. قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٦]. وقد رخص الله تعالى الانسحاب المنظم إن زاد عدد الأعداء عن ضعف عدد المسلمين ولكن لا بد الآن لذلك من ضوابط أخرى بغير عدد الأفراد عند اختلاف المعدات وخاصة عند التباين الشاسع في تدميرها كما في الأسلحة الحديثة.

وقذف المحصنات من الجرائم الاجتماعية الكبيرة لأنها تشيع الفاحشة بين المسلمين، وتنزع الحياء من المجتمع وتورث الضغائن والأحقاد وربما ارتكاب جريمة القتل. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ٢٣].أما السحر فإن منه ما هو إستخفاف بحق العقول البشرية ومنه ادعاء باطل بوجود قوى خفية تؤثر في الكون دون إعارة إهتمام لقدرة الله تعالى. ومن السحر المنتشر الآن ما يسمى بتحضير الأرواح. وهو بحقيقته ليس تحضيرًا لأية روح متوفاة وإنما وسيلة للاتصال مع الجن الذي يسمونه الوسيط والذي لا يوصلهم إلاّ الى جن مثله. أما صدق بعض الأخبار التي تحتويها مثل هذه الجلسات فإن مردَّه إلى أن مع كل إنسان قرين من الجن كما قال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ [فصلت: ٢٥]، وهذا القرين الذي كان يعيش مع إمرئ قد توفي ربما يعلم عن ذلك المتوفي شيئًا صحيحًا قد ينقله إلى بني آدم

فيصدقونه في كل ما يخبرهم به من حق وباطل. إن من بين الجن ملاحدة كما بين الإنس فمن صدَّقهم بما يخبرونه ظنًا منه أنه يكلم الأموات فينكرون أي حساب أوعذاب، فتتزعزع عقيدة المرء وقد توصله إلى الإلحاد. لذلك شددَّ الرسول ﷺ في وعيد إتيان السحرة وتصديقهم فقال: **"مَن أتى عرّافًا أو كاهنًا فصَدَّقهُ بما يَقولُ فقَد كَفَرَ بما أُنزِلَ على مُحَمَد»** [رواه أحمد والحاكم]

٤٩ـ إجتناب الزنا وشرب الخمر والسرقة

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :

"لا يَزني الزّاني حينَ يَزني وهُو مؤمِن، ولا يَسرِقُ السارِقُ حينَ يَسرِقُ وهو مُؤمِن، ولا يَشرَبُ الخَمرَ حينَ يَشرَبُها وهُو مؤمِن، ولا يَنتهِبُ نَهبَة ذات شَرَف يَرفعُ الناسُ إليهِ أبصارَهُم حين يَنتهِبَها وهو مؤمِن» [رواه الشيخان والنسائي]

حرم الله الزنا وشدد في عقوبة الزناة، وحرم حتى التقرّب من الزنا أيضًا فقال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: 32]، وهكذا فكل ما يقرب من الزنا هو حرام كالقبلة والتبرج وإظهار الزينة المثيرة للشهوة والملامسة ونشر الصور والأفلام الخليعة وقول الشعر الماجن وغير ذلك من مثيرات الشهوات وما يقرب من إرتكاب الفاحشة. ويتبع الزنا في التحريم بل ربما زاد عليه فعل قوم لوط. ولفظ وهو مؤمن في الحديث تشير إلى عظم الذنب، وأن فاعل هذه المحرمات يخرج بفعله هذا عن حضيرة المؤمنين، فهو على أحسن تقدير من الذين قالوا أسلمنا بأفواههم ولمّا يدخل الإيمان في قلوبهم.

والسرقة إحتياز مال الغيرالمصون خلسة والنهب هو إحتيازه علانية. ففي حين يخشى السارق العقوبة، فإن المنتهب لا يخشى العقوبة لذلك يجاهر بفعله، وقد يكون هو واحدًا ممن إستأمنه الناس على دمائهم وأعراضهم وأموالهم، وربما يعتبر ذلك من الرجولة فيفاخر الناس بفعلته القبيحة. فأموال المسلمين عليهم حرام إلاّ عن طيب نفس منهم. ورغم أن عقوبة السارق في الدنيا أليمة إن إكتشف أمره، إلاّ أن العقوبة يوم القيامة أشد لمن لم يتب قبل فوات الأوان، وليس لسارق أو منتهب توبة إلا إذا إستحله صاحبه.

أما الخمر فهي أم الكبائر وقد حرم الله شربها وعصرها وسقيها والجلوس على مائدتها وبيعها وشرائها سواء سميت بإسمها أو بغير إسمها كالبيرة أو النبيذ أو الويسكي ويتبع الخمر في حكمه كل المسكرات والمخدرات سواء في ذلك ما أسكر منه القليل أو الكثير أو ما خدّر. إن نعمة العقل من أكبر نعم الله تعالى، لذلك فإن

إذهاب العقل ولو لفترة قليلة إبتغاء لذة تافهة، لايليق بالمسلم فإن الله قد كلفه بالانتفاع بتلك النعمة الكبيرة لا الإستهانة بها.

٥٠ـ إجتناب الكذب على رسول الله ﷺ

عن المغيرة بن شعبة قال: قال رسول الله ﷺ :

"إن كذبًا عليّ ليسَ كَكَذِب على غيري، مَن كَذبَ عليّ مُتعَمّدًا فليَتبوأ مَقعدَهُ من النّار»

[رواه مسلم]

لقد مر بنا كذلك حديث آخر في المعنى نفسه تحت الرقم (١٤)، فالكذب على رسول الله ﷺ عمدًا من الكبائر، ولا يشفع لمن كذب على رسول الله ﷺ حسن نيته إن إدعى أنه يكذب ليرغِبَ الناس في أمر حسن. والأكبر من الكذب على رسول الله ﷺ هو الكذب على الله تعالى. قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر: ٣٢]. ومن الكذب على الله ورسوله إختلاق أحاديث أو وضعها أو نسبة شيء إلى الدين إبتغاء كسب دنيوي أو هوى نفس وهو يعلم أن ما يقوله كذبًا وهو ما يقوم به بعض المتزيين بزي العلماء اليوم إبتغاء إرضاء أسيادهم لقاء متاع زائل. إن مثل هذا الحديث وغيره، ورغبة من سلف هذه الأمة بحفظ الدين من أن تدخله الأحاديث الكاذبة التي يمكن أن تُنسب إلى رسول الله ﷺ، فقد أنشأ السلف الصالح علم رواية الحديث، وهو علم جليل قيظّ الله له من حفظ لهذه الأمة دينها، لا بحفظ القرآن فقط، بل بحفظ حديث رسول الله ﷺ أيضًا. وقد بيّن علماء الحديث درجة الثقة بالأحاديث وبينوا ما ليس بحديث منها. فالأحاديث الموضوعة ليست بأحاديث ولا يجوز روايتها منسوبة إلى رسول الله ﷺ .

إن الدقة في نقل أحاديث رسول الله ﷺ مطلوبة شرعا، لأن أقواله دين، وعلى المسلم أن يتأكد ويتحرى الدقة في الدين الذي يتعامل به مع ربه، فلا ينقل عن رسول الله ﷺ إلاّ ما كان متأكدًا من نسبته إليه، والأفضل أن يعرف مصدره كذلك، كما يتبع ذلك تفسير معناه على النحو الذي يليق برسول الله ﷺ وكل ذلك من الأمانة التي أمر الله بها

٥١ـ إجتناب الظلم

عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :

"قالَ اللهُ تعالى: يا عِبادي.. إنّي حَرَّمتُ الظُلمَ على نَفسي وجَعَلتهُ مُحَرَّمًا بينَكُم فلا تظالَموا، يا عبادي.. كُلُّكُم ضَالٌ إلاّ مَن هديتهُ، فاستهدوني أهدِكُم، يا عِبادي.. كُلُّكُم جائع إلاّ مَن أطعَمتهُ، فاستطعِموني أطعِمكُم، يا عِبادي، كُلُّكُم عارٍ إلاّ مَن كَسوتهُ، فاستكسوني أكسِكُم، يا عبادي.. إنّكُم تخطِئُونَ باللّيلِ والنّهار، وأنا أغفِرُ الذّنوبَ جَميعًا فاستغفِروني أغفِر لَكُم، يا عِبادي.. إنّكُم لَن تبلُغوا ضُرّي فتضُروني ولن تبلُغوا نَفعي فتنفَعوني، يا عِبادي.. لو أن أوّلَكُم وآخِرَكُم وإنسَكُم وجِنّكُم كانوا على أتقى قَلبِ رَجُلٍ مِنكُم ما زادَ ذلك مِن مُلكي شيئًا، يا عِبادي.. لو أنّ أوّلَكُم وآخِرَكُم وإنسَكُم وجِنّكُم كانوا على أفجَرِ قَلبِ رَجُلٍ مِنكُم ما نَقَصَ ذلك مِن مُلكي شيئًا، يا عِبادي.. لو أن أوّلَكُم وآخِرَكُم وإنسَكُم وجِنّكُم قاموا في صَعيد واحِد فسألوني فأعطيتُ كُلّ سائِلٍ مَسألَتهُ ما نَقَصَ ذلك مما عِندي إلاّ كَما يَنقُصُ المِخيَط إذا أُدخلَ البَحرَ، يا عِبادي.. إنّما هي أعمالُكُم أحصيها لَكُم ثم أوفيكُم إيّاها، فمَن وَجَدَ خيرًا فليَحمَدِ اللّه ومَن وَجَدَ غَيرَ ذلكَ فلا يَلومَنّ إلاّ نَفسَهُ»
[رواه مسلم والترمذي]

من أسماء الله تعالى الحسنى: العدل، فكل ما يحكم الله به هو العدل، ليس فيه ظلم قيد أنملة، ولا يرضى من عباده بعضهم على بعض إلاّ بالعدل. فالظلم ظلمات يوم القيامة. إن دواعي ظلم البشر بعضهم لبعض كامنة في أنفسهم يثير نوازعها الشيطان. فالأثرة والأنانية وحب العلو والتسلط من الأسباب الرئيسة للظلم ولكن المؤمن الذي يُحب لأخيه ما يحب لنفسه، كما قال عليه السلام: "**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»** [متفق عليه]، والذي لا يرضى الظلم لنفسه كيف يرضاه لغيره؟ المؤمن يضع نفسه مكان المظلوم فلا يعامله إلا بما يحب أن يعامَل هو به. فلا يمنع الناس حقوقهم التي فرض الله أداءها لهم، وهو ينصر المظلوم ما إستطاع إلى ذلك سبيلاً ولو بكلمة رجاء عند من ظلمه، ولو بالدعاء إن لم يستطع غير ذلك. ولكن يجب أن يكون الدعاء بعد محاولة نصرته ثم عدم الاستطاعة. أما الغافل عن نصرة المظلوم وهو مستطيع ذلك فهو من جملة من ظلمه. وعلى ذلك فنصرة المظلوم فرض كفاية إذا قام بها بعض المسلمين سقط الإثم عن الجميع وإن لم يقم بها أحد أثم من كان مستطيعًا دفع الظلم ولم يساعد في دفعه. قال ﷺ: "**إتقوا دَعوة المَظلومِ وإن كانَ كافرًا فإنّهُ ليسَ دونَها حِجاب»** [رواه الخمسة]، وقال سعيد بن المسيب: لا تملئوا أعينكم من أعوان الظلمة إلاّ بإنكار من قلوبكم لئلا تحبط أعمالكم الصالحة. وجاء رجل إلى سفيان الثوري، فقال: إني أخيط ثياب السلطان هل أنا من أعوان الظلمة؟ قال بل أنت من الظلمة أنفسهم، ولكن أعوان الظلمة من يبيع الإبرة والخيوط.

والظلم متعدد الأشكال، فظلم النفس بتعريضها لمقت الله تعالى وغضبه بعدم إطاعة أوامره، وظلم الأهل والولد بعدم إعطائهم حقهم أو إطعامهم الحرام أو عدم العدل بينهم، وظلم الأمير لرعيته بعدم إعطائهم حقوقهم أو إيثار نفسه وخاصته عليهم وعدم المساواة بينهم وعدم تطبيق شرع الله بينهم، وظلم المرأة عدم إطاعة زوجها وعدم الاهتمام بتربية أولادها، وظلم الأجير من استأجره بعدم إتقان عمله، وهكذا. وكل هذه الأبواب مما حرم الله تعالى من الظلم.

وقد مر أن من أكبر أنواع الظلم: ظلم الضعفاء الذين لا يستطيعون أخذ حقوقهم كالأرملة واليتيم. وأن من أكبر أنواع الظلم الأخرى شهادة الزور وقول الزور قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴾ [الفرقان: ٧٢]، واليمين الغموس التي تغمس صاحبها في جهنم حين يحلفها وهو يعلم أنه كاذب إبتغاء إقتطاع حق غيره سواء إستفاد من ذلك هو أو غيره من الظلمة.

٥٢ـ العدل بين الرعية

عن معقل بن يسار ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "**ما من والٍ يلي رعية من المسلمين، فيموت وهو غاش لرعيته، إلا حرم الله عليه الجنة**» [أخرجه البخاري]

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ [إبراهيم: ٤٢]. الظلم ظلمات يوم القيامة. وكلما عمّ الظلم ناسًا أكثر كلما كان عقابه يوم القيامة أشد. فمن إستُرعِي على نفر فظلمهم ببخسهم حقوقهم أو بأخذ أموالهم بغير حق أو بتكليفهم ما لا يطيقونه أو بإستئثاره بحقوقهم لمصالحه فهو في النار، فكيف بمن إسترعى أمانة أكثر من ذلك. وقد هدد الله الظالمين بقوله تعالى: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]. إن من الظلم، الرضا بالظلم والإعانة عليه. و "**من أعان ظالمًا على ظلمه سلطه الله عليه**» [رواه ابن عساكر]. وإن أحد أسباب تمادي الظلمة في ظلمهم هو بطانة السوء وإعانة بعض الرعية الظالم على ظلمه. قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٤]، وأنذر الله تعالى بأن عقوبة من أعانه ستكون يوم القيامة أشد العذاب: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾ [غافر: ٤٦]. لاحظ بأنه ذكر أشد العذاب على آل فرعون وليس على فرعون نفسه وهم الذين قال عنهم علي ﷺ «**أشقى الخلق مَن باع دينهُ بدُنيا غيرِه**»

فالظالم بعيد عن مغفرة الله تعالى له حتى وإن تاب، إلاّ إذا استحله الذين ظلمهم. وغش الرعية وظلمها له أشكال عديدة، منها الخفي كالإعلام الكاذب والتعليم الذي لا يخدم مصلحة الأمة ونشر وسائل اللهو المحرمة، ومنها الغش الواضح كالظلم في الأموال والأنفس والحقوق. لذلك فإن المؤمن إن كان راعيًا لا يظلم رعيته بل يبتغي مصالحهم ويسهر عليها، وإن كان من الرعية فهو لا يساعد ظالمًا على ظلمه ويتبرأ من غشه ويبينه للناس ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فالأمانة موكلة بكل المسلمين حيث قال ﷺ: "**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في مال أبيه ومسؤول عن رعيته، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»** [رواه أبو داود والترمذي وأحمد والبيهقي]

٥٣ـ التمايز بين الرجال والنساء

عن أبن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول ﷺ :

"**ثلاثة لا يَنظُرُ اللهُ إليهِم يومَ القِيامَةِ: العاقّ لوالدِيه، والمرأةُ المُترَجِّلةُ المُتشبِّهَةُ بالرِجالِ، والديّوث. وَثلاثة لا يَدخُلونَ الجَنّةَ: العاقّ لوالِديهِ، والمُدمِنُ الخَمرِ، والمنّانُ بما أعطى»**

[رواه الطبراني والنسائي والحاكم]

خلق الله الرجل والمرأة من نفس واحدة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وبذلك تساوى الرجل والمرأة في إنسانيتهما وما يترتب على ذلك من تكاليف، لكنهما مختلفان في التركيب الجسدي بحيث كان أحدهما مكملاً للآخر وليس بديلاً عنه، قال تعالى ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٨٧]. لذلك كان تشبُّه النساء بالرجال وتشبه الرجال بالنساء أمر مخالف لفطرة الله التي فطر الناس عليها. وإن ترجُل المرأة أو تخنث الرجل هو تعبير عن السخط على مشيئة الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَ﴾ [النساء: ٣٢]. إن ترجل النساء يعني ذهاب الحياء وإبتذال المرأة وتعريض كرامتها للمهانة وتكليفها فوق ما تطيق. أما تخنث الرجال فيتبعه الميوعة واضمحلال الأخلاق. لذلك حرم الله تعالى التبرج للنساء وتقليدهن للرجال في اللباس والتصرفات، وسنّ رسول الله ﷺ سننًا خاصة لهن في اللباس والخطاب والتعامل فيما بينهن أو مع الرجال، مثلما سنّ سننًا للرجال، ﴿تِلۡكَ

﴿ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[البقرة: 229].إن الحياء للمرأة هو أفضل ما يزينها. فإذا سقط حياؤها أصبح المجتمع أشبه بغابة تنتشر فيها الهوام. ولقد فرض الله الحجاب صيانة للمجتمع من الوصول إلى درك البهائم. لذلك فإستقامة المرأة تستوجب تمسكها بما فرض الله عليها من حجاب وعدم تبرج وغض للبصر وطاعة لزوجها أو لوليها وحفظ للأمانة الملقاة على عاتقها في بيتها وولدها، وإن إضطرتها الحياة للعمل عرفت حدود الشرع مما أحل الله وحرم ولم تتعد ذلك أبدًا. أما تصرف الرجل مع النساء الأجنبيات فهو الآخر محدود بحدود الله مما فرض كغض البصر واجتناب الخلوة المحرمة والابتعاد عن مواطن الشبهات وعدم الميوعة في خطابه للنساء وغيرها.

أما المنّان فهو الذي يؤذي الناس بتخجيلهم وجرح شعورهم بما أسدى إليهم من شيء يظنه فضلاً. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فالمنّ خلق ذميم لا يليق بالإنسان السوي فكيف وهو محبط للعمل وممحق لأجور الآخرة؟ ولو فكر المنّان بما يمنّ به لعلم أن النعمة التي يمنّ بها هي من عند الله والله قدير على أن يسلبها منه ويعطيها لمن يمنّ بها عليه. والمؤمن الصادق يشعر بأنه إذا أعطى صدقة لفقير محتاج فإنه أصبح لهذا الفقير منّة عليه لأنه كان مساعدًا له في إكتسابه الثواب من عند الله تعالى. فإن كان الأمر كذلك فكيف يشعر بمنّة على غيره مهما أسدى لغيره من معروف أو بذل من مال.

٥٤ـ إجتناب لعب القمار

عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ :

"مَن لَعِبَ بالنردِ فقد عَصى اللهَ وَرَسولَهُ» [رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه]

لعب القمار محرم بالقرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩١]. والميسر بأنواعه من دور قمار ورهان سباق الخيل واليانصيب والرهان على أي نوع من الألعاب المسلية سواء ما ذكره الحديث من نرد أو غيره، كل ذلك مشمول بالتحريم. ولقد بين الله بعض الأغراض الشيطانية من التسويل للناس في لعب القمار من إيقاع البغضاء بين الناس ومن الصد عن الصلاة، إضافة إلى أكل أموال الناس بالباطل: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ

تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨]. أما اللعب الذي لا يعتمد على الرهان ولا النرد ويمكن أن ينمي القابليات البدنية والذهنية كالمبارزة أو بعض الألعاب التلفزيونية التي شاعت مؤخرًا والشطرنج، فهي مباحة شرط عدم تسببها في تأخير فريضة أو قيام بواجب. بل ويمكن أن يكون بعضها مندوبًا إذا كان مفيدًا لتنمية القابليات البدنية والذهنية.

وسبق أن أوضحنا في شرح الأحاديث ١و ٢٥ و ٤٥ أن الترويح عن النفس ينقلب إلى عبادة عند حضور النية. ونضيف هنا شرطًا آخر وهو أن تكون الوسيلة للترويح مباحة كشرط لكي ينقلب الترويح عن النفس إلى عبادة. فالله سبحانه وتعالى لم يأمر باتباع الصراط المستقيم دون أن يوضح السبل المشروعة المؤدية إلى ذلك وحث على الأخذ بها، وحذر من الوسائل غير المشروعة حتى وإن كان فيها فوائد قليلة أحيانًا. فالوسيلة المحرمة هنا هي الربح دون بذل جهد بدني أو فكري أو بإستغلال المصادر الطبيعية التي سخرها الله سبحانه وتعالى لبني آدم، بل استخدام لظواهر ليس للإنسان فيها فضل كالحظ أو إستغلال سذاجة بعض الناس وغشهم بوسائل ما أنزل الله بها من سلطان.

٥٥ـ الورع عند كسب الرزق

عن كعب بن عجرة[١] قال: قال رسول الله ﷺ :

"كُلّ لَحم نَبَتَ مِنَ الحَرَامِ فالنّار أولى بِهِ» [رواه الترمذي وحسّنه]

قال أبو بكر الصديق ﷺ: إتق الله بطاعته، وأطع الله بتقواه، ولتخفَّ يداك من دماء المسلمين وبطنك من أموالهم ولسانك من أعراضهم. فرض الله إكتساب الرزق من الحلال وحرم إكتسابه من الطرق غير المشروعة من غش وسرقة ورشوة ونقص في المكيال وغصب أموال الناس. فمن اكتسب المال من الحرام فقد البركة، فلا ترى أثرًا صالحًا لماله، وإن أنفق ماله في غذاء نفسه فهي ستلقى عقابها في الآخرة، وإن غذى به عياله فقد غشهم وما نصح لهم فلا عجب إن عقَّه ولده وفسدت أخلاق من يعيلهم نحوه ونال عقاب ما فعل في حياته ولعذاب الآخرة أشد.

قالت عائشة رضي الله عنها إنكم لتغفلون عن أفضل العبادة، هو الورع. وكان عبد الله بن المبارك يقول: رد درهم شبهة أحب إلي من أن أتصدق بستمائة ألف درهم.

قال سهل التستري: من أكل الحرام عصت جوارحه شاء أم أبى. فالمعدة موضع يجمع الأطعمة، فإذا طرحت فيه الحلال صدرت ألأعضاء بالأعمال الصالحة وإذا

---

(١) كعب بن عجرة بن أمية البلوي، أنصاري أو حليف للأنصار. شهد عمرة الحديبية، ونزلت فيه آيات الفدية، حيث كان مريضًا في رأسه، فمر به النبي ﷺ فقال له: " إحلق رأسك وأطعم فرقًا بين المساكين ". سكن الكوفة ومات بالمدينة سنة ٥١هـ وكان له من العمر ٧٥ سنة .ﷺ

طرحت فيه الشبهة إشتبه عليك الطريق إلى الله وإذا طرحت فيه التبعات كان بينك وبين الله حجاب.

إن لأكل الحلال علاقة وثيقة بإستجابة الدعاء. فقد روى مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ: "**ألرَجُلُ يطيلُ السَفَرَ أشعَثَ أغبَر يَمُدّ يدهُ إلى السماء يا رَبّ يارَبّ ومطعمهُ حَرام ومَلبَسُهُ حرام فأنّى يُستجابُ لَهُ**» [صحيح الجامع الصغير والترغيب والترهيب].

وليس لمنفق المال الحرام في طرق الخير من ثواب. فإن الله لا يمحو السيئ بالسيئ ولكنه يمحو السيئ بالحسن، يقول سفيان الثوري ﷺ: من أنفق من الحرام في طاعة الله تعالى كان كمن طهّر الثوب النجس بالبول والثوب النجس لا يطهره إلا الماء.

٥٦ـ إجتناب الكذب والخيانة

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ :

"**يُطبَعُ المُؤمِنُ على كُلّ خُلُق ليس الخيانةُ والكذبُ**» [رواه البيهقي وأحمد]

الكذب إذا جبل عليه المرء قاده لا محالة إلى النار. فالكذب يقود إلى النفاق وهو أساس كل الأعمال الخبيثة. فمرتكب الخطايا الكبيرة إن لم يكن كذابًا فإنه يخشى إن صدق القول مع الناس أن يفتضح أمره فيكون كذبه حافزًا له على الاستمرار في إرتكاب الذنوب. وإخلاف الوعد ما هو إلاّ كذب فعلي وقولي معًا. والغش والخيانة كذب بالأفعال وقول الزور وشهادة الزور ماهي إلاّ كذب في أبشع صوره وهكذا كان الكذب لمن إعتاد عليه أساسًا للخبائث بل هو أكبر من أم الخبائث - الخمر-.

أما الأمانة فقد قال الله تعالى فيها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، فخيانة الأمانة لا يُجبَلُ عليها مؤمن ولن يوفق الله خائنًا في مسعاه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾[يوسف: ٥٢]. وأكبر الخيانة هي خيانة الله ورسوله التي هي النفاق الخالص. والرياء بالأعمال من الخيانة، وعدم حفظ ما إؤتُمن عليه المرء من مال أو عمل يتكسب به أو يوثق منه عليه، كل ذلك من الخيانة. بل إن من أعظم الخيانة أن تحدث جليسك بحديث تكذب عليه فيه وهو مصدِّق لك. والدعاية الكاذبة لسلعة أو رأي هو خيانة. ولا تجوز الخيانة حتى مع من خانك. "**أدّ الأمانة إلى مَن إئتمَنَكَ ولا تخُن مَن خانَكَ** " [رواه البخاري في التأريخ وأبو داود والترمذي والحاكم]. فالمؤمن قد امتزج الصدق وحفظ الأمانة بدمه ولحمه وأخذ عليه لبّه، فلا يعرف الكذب والخيانة.

ومن أنواع الخيانة القبيحة: التجسس. فالتجسس هو خيانة لمن أمن جانب المرء بينما هو يتلصص على الخفايا سواء كان ذلك لنفسه أو لغيره. قال تعالى: "**ولاَ**

تجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا» [الحجرات:١٢]، والتجسس على المسلمين من أقبح الأخلاق وأرذلها ولا يقوم بها إلا من باع دينه إبتغاء متاع قليل من متاع الدنيا.

٥٧ـ إجتناب اللعن والفحش

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

"ليسَ المؤمِنُ بطعّان ولا لعّان ولا فاحِش ولا بَذيء»

[رواه البخاري في الأدب وأحمد وإبن حبان والحاكم]

إن اللعن والسب والشتم والفحش في الكلام والطعن في الأنساب، كل ذلك ليس من شيم المتقين. وسباب المسلم فسوق يعني أن السابّ نفسه فاسق لأن سباب المسلم فسوق وقتاله كفر(أخرجه البخاري). أما لعن من فعل فعلاً معينًا دون تخصيص لأحد فهو جائز، فقد ورد عنه ﷺ أنه لعن آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه، ولعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء، ولعن من لعن والديه، ومن عمِل عمَل قوم لوط، والراشي والمرتشي، والمحتكر، والخمر وشاربها وساقيها وآكل ثمنها وبائعها ومستقيها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه، ولعن المرأة إذا خرجت من دارها بغير إذن زوجها، ولعن النامصة والمتنمصة، ولعن المرأة إذا باتت وزوجها عليها ساخط، ولعن من خبب إمرأة على زوجها، وقد لعن الله تعالى في القرآن الظالمين والكاذبين: ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].. إن من أشنع أنواع السباب رمي المسلم بالكفر. ومثل هذا شائع بين مدّعِي العلم وهم أبعد ما يكون عن العلم حيث يتهمون من يخالفهم في الرأي به. وقد حذر رسول الله ﷺ من تكفير المسلمين، لأن من قال لأخيه يا كافر، باء بها أحدهما، كما قال عليه الصلاة والسلام: **"إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما»** [رواه البخاري]، أي إما أن يكون صادقًا أو أن تعود كلمة الكفر عليه هو والعياذ بالله.

والمؤمن بعيد عن السب والشتم ولا يستخدم الألفاظ البذيئة في جد ولا هزل ولا في رضًا أو غضب. ومن الضروري تنشئة الأطفال بعيدًا عن إستخدام تلك الألفاظ لأن محوها بعد ما يكبر الشخص إن تعوّد عليها وهو طفل صغير صعب، وحتى إن تركها فربما تفوه بها دون شعور في حالات الغضب.

٥٨ـ إجتناب الاحتكار

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :

"مَن احتكَرَ حَكرَة يريدُ أن يُغلي بها على المُسلمينَ فهُو خاطئ وقد بَرِئت مِنهُ ذِمَّةُ اللهِ ورَسولِهِ» [رواه أحمد والحاكم]

الاحتكار بغية رفع الأسعار على المسلمين حرام. ولفظة خاطئ في الحديث لا تعني صغر ذنب المحتكر لأن تتمة الحديث تفسر معنى الخطأ حيث أن براءة ذمة الله ورسوله لا تكون إلاّ على أمر من الكبائر. فالاحتكار خلق ذميم يجعل المحتكر يفرح بشقاء غيره متجردًا من الإنسانية. إن المال في يد المؤمن عارية (أمانة) قد إستودعه الله تعالى إياها يستفيد منها ويفيد غيره إلى أجل مسمى. أما المال في يد المحتكر فهو كنياب السباع في الغابة يؤذي به عباد الله واضعًا أنانيته فوق كل إعتبار لكي يحصل على المزيد من المال، ولا يكاد يشبع إلاّ من التراب ويتوب الله على من تاب.

ويزداد ذنب المحتكر كلما كانت الحاجة إلى السلعة التي يحتكرها أشد من قبل الناس. فمحتكر الطعام الضروري أكبر إثمًا. والغني الذي يجمع المزيد من الأموال بجشع وشراهة في أوقات كروب الناس من غلاء أو حروب أو فقدان للأمن يرتكب إثمًا كبيرًا. والإنفاق في مثل تلك الأوقات من أعظم القربات عند الله. قال تعالى: ﴿ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ ﴾ [البلد: 11-14]. فالمؤمن يرضى بالقليل من الربح وهو سهل عند البيع والشراء، فإذا مانزلت بالمسلمين مصيبة من غلاء أو قحط، جعل نفسه واحدًا ممن يعاني، فيحزن لمصائبهم دون احتكار أو استغلال لتلك المصائب.

٥٩ـ إجتناب الترف

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: نهانا رسولُ الله ﷺ عن أن نَشرَبَ في آنيةِ الذَهَبِ والفِضَّةِ وأن نأكُلَ فيها، وعَن لِبس الحَرير والديباج وأن نَجلِسَ عَليها. [أخرجه البخاري]

التمايز الذي فرضه الله بين الرجال والنساء لِحِكَم بالغة، منها تعزيز رجولة الرجل وأنوثة المرأة. وقد مر تحريم تشبه الرجال بالنساء وتشبه النساء بالرجال. ولإحداث المزيد من التمايز في المظهر، حرم الله تعالى على الرجال هذه الأصناف من اللباس. أما الطعام والشراب في أنية الفضة والذهب فهو دليل على الترف والبذخ والبطر الذي إن حل في أمة أذهب عنها النعم وأزالها عنها فإن الترف يزيل النعم.

لقد أحل الله الزينة لعباده: ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ ﴾ [الأعراف: ٣٢]، لكن ذلك مقيد بحدود أن لا يكون في ذلك إسراف وتبذير ولا إزدراء

لنعم الله ولا عجب ولا تكبر. ولقد أحل الله للنساء أصنافًا من الزينة أمام أزواجهن ومحارمهن من الرجال، وحرم على الرجال أصنافًا من الزينة كالذهب والحرير. وما ذلك إلاّ لما وضع لكل من الصفات وأوكل إليهم صنفًا من الواجبات.

٦٠ـ حب صحابة رسول الله ﷺ وآل بيته

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :

"لا تسُبّوا أصحابي، فلو أن أحدكُم أنفقَ مِثلَ أُحُد ذهَبًا ما بَلَغَ مَدّ أحَدِهِم ولا نَصيفَهُ» [رواه البخاري]

لقد إختار الله تعالى بني آدم من بين سائر المخلوقات، واختار إسماعيل عليه السلام ليكون جدًا لخير خلقه، واختار أمة سيدنا محمد ﷺ لكي تكون خير أمة أخرِجَت للناس، واختار لرسوله صحبًا وأتباعًا وآل بيت لكي يكونوا أهلاً للمساعدة في حمل تلك المهمة الصعبة. ألاً يجب بعد ذلك على خَلَف الأمة أن يشكروا لأولئك الأسلاف حفظهم للشريعة وإبلاغهم إياها لمن جاء بعدهم، والدفاع عن رسول الله ﷺ وفداؤه بأرواحهم وأموالهم. إن سب أولئك النفر الأبرار ألذين أحاطوا برسول الله ﷺ، ما هو إلاّ إنتقاص من الدين نفسه. وبتحريض من أعداء الله يشوهون صورة أولئك الأصحاب الأبرار بهدف هدم الدين محاولين إيهام السذج من الناس أنه إذا كان دين الله لم يؤثر في صحابة رسول الله ﷺ وهم أقرب الناس إليه فتأثيره فيما سواهم أقل وصلاحه للناس يعود مشكوكًا فيه. وإحترام سلف هذه الأمة من صحابة كرام وآل بيت النبوة الأطهار والتابعين وتابعيهم والأئمة المجتهدين وأئمة الحديث والعلماء الذين نذروا حياتهم لخدمة هذا الدين على مر العصور، هذا الإحترام دليل على صلاح المرء نفسه. إن هذا الاحترام لأولئك النفر الأبرار لا يرفع أيًّا منهم إلى درجة النبوة أو العصمة، فكلهم كما قال الإمام مالك ﷺ، وهو أمام قبر رسول الله ﷺ: كل رجل يؤخذ منه ويرد عليه إلاّ صاحب هذا القبر. فمن أصاب منهم فله أجران ومن أخطأ فله أجر. والدعاء لهم مثبت في نص القرآن: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[الحشر: ١٠].

خلف رسول الله ﷺ الخلفاء الراشدون الذين أمر هو بإتباع سنتهم: "**عليكُم بسُنّتي وسُنّةِ الخُلفاء الراشِدينَ المَهديينَ مِن بَعدي، عَضّوا عليها بالنواجذ، وإيّاكُم ومُحدَثاتِ الأمور»** [رواه الترمذي]، وهم ضمن العشرة الذين بشرّهم رسول الله ﷺ بالجنة. ومن الصحابة العلماء من نقلوا لنا الحديث وعلوم الدين الأخرى، ومنهم من نشروا الدين ففتحوا العراق والشام ومصر وغيرها وبذلك كان لهم ثوابًا إلى يوم

القيامة ما سجد لله في هذه البلاد ساجد لأنهم تسببوا في ذلك. لذلك فإن سبَّهُم من الكبائر ويخشى أن يقود صاحبه إلى النفاق.

إن واجب المسلم أن يحب صحابة رسول الله ﷺ نتيجة حبه له. وعليه أن يحب آل بيته الطيبين الطاهرين وذريته إكرامًا له ووفاء لبعض حقه فقد أوصى الأمة بهم، فقد قال عليه الصلاة والسلام: "**أذكّركم الله في أهل بيتي**» [رواه مسلم] وعلى المؤمن أن لا يؤذي رسول الله في صحابته وآل بيته بذكر مساوئ تنسب إليهم، وعليه أن يمسك عن ذكر ما اختلفوا فيه: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤و١٤١] كما أن معاداة أولياء الله من الصحابة وآل البيت وغيرهم ممن جاء بعدهم إلى يوم القيامة عداء لصفوة الأمة، ومحاربة للدين في شخص خيرة من يدين به. والله تعالى قد تعهد بنصرتهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ [الحج: 38]، فالله سبحانه وتعالى يحب المؤمنين المتقين ويدافع عنهم، فمن عادى لله وليًا فقد وقف في صف أعداء الله فيؤذنه الله تعالى بالحرب، سواء كان ذا نفوذ وسلطان أو رجلاً من عامة الناس، لذلك على المؤمن أن يحب الصالحين ويغض الطرف عن هفواتهم ولا يقع في غيبتهم وبغضهم، لئلا يكون في صف أعداء الله تعالى. ولا يتصور أن الأولياء معصومون عن الأخطاء، فهم يخطئون، لكنهم إن تذكروا أو ذُكِّروا فاءوا واستغفروا. ومن أولياء الله الذين خلوا إلى ما قدموا بعد صحابة رسول الله ﷺ وآل بيته: الأئمة المجتهدون والعلماء الأعلام، ويجب عدم الركون إلى الخلاف بينهم أو نقد بعضهم لبعض، فإن كان بينهم مخطئ ومصيب، فإن ذلك لن يقلب سيئ أعمالنا حسنًا ولا يغني عنا شيئًا.

٦١- إلتزام الحجاب للمرأة

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :

"**صِنفانِ مِن أهلِ النَّار لَم أرَهُما: قوم مَعَهُم سِياط كأذنابِ البَقَرِ يَضرِبونَ بها النّاسَ، ونِساء كاسيات عاريات مائلات مُميلات رؤسُهُنّ كأسنِمَةِ البُختِ لا يَدخُلنَ الجَنّةَ ولا يُرِحنَ ريحَها، وإنّ ريحَها ليوجَدُ مِن مَسيرَةِ كَذا وكَذا»** [رواه مسلم]

كرّم الله تعالى المرأة ومن تكريمه لها فرض الحجاب صيانة لها من عيون السوء. فإنتهاك محارم الله من ترك للحجاب وتهتك وتبذل هو من الكبائر، وهذا التطاول على حرمات الله تعالى ليس أمرًا شخصيًا بحيث يكون للمرأة الحق في قبوله أو رفضه، بل هو حق المجتمع لأن النساء الكاسيات لجزء من أبدانهن عاريات للجزء الآخر والمتمايلات في مشيتهن، لابد وأن يكن فاتنات لبعض من يراهن،

فالحجاب وقاية للمرأة من أن تستهان ووقاية للمجتمع من أن يقترب من الفحشاء، لذلك كانت عقوبة المتبرجات يوم القيامة كبيرة كما بيّنها سيدنا رسول الله ﷺ، فعملهن هذا محبط لغيره من الأعمال وبهذا يجدن أنفسهن يوم القيامة مفلسات من كل حسنة، فلا يدخلن الجنة وهن أبعد الناس عنها.

والحجاب للمرأة كلٌ متكامل. فلم يفرض الله تعالى على المرأة أن تغطّي بدنها ثم تنتهك حرمات الله بإظهار الزينة كالروائح العطرية أو التبذل في الكلام أو الغناء. ولم يحرم عليها الاختلاط في الأسواق ليحلّ لها الإختلاط في البيوت مع من لا يحل مخالطتهم من الأقرباء أو المعارف. فالمؤمنة تطبق ما افترض الله عليها بنفس راضية مطمئنة، وهي ترجو ثواب ذلك من الله والله عنده حسن الثواب.

أما الصنف الثاني الذين ذكرهم الحديث فهم الظَلَمة الذين يعتدون على الناس بغير حق من أهل القوة والسلطة وأعوانهم وزبانيتهم. فالظلم ظلمات يوم القيامة والله بريء من الظالمين.

٦١ـ عدم المجاهرة بالمعصية

عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **"كُلّ أمّتي مُعافًى إلاّ المُجاهِرونَ، وإنّ مِنَ الإجهار أن يعمَلَ العَبدُ بالليلِ عَملاً ثم يُصبحُ قد سَترهُ ربُّهُ فيقولُ يا فُلانُ قد عملتُ البارِحةَ كذا وكذا وقد باتَ يسترُهُ ربُّهُ فيبيتُ يسترُهُ ربُّهُ ويُصبحُ يَكشِفُ سِترَ اللّهِ عنه»** [رواه مسلم]

إنّ الله تعالى لا يحب أن تشيع الفاحشة بين المسلمين. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور:١٩]، وظهور المعاصي علانية يشيعها بين الناس ويعوّد الناس على عدم إنكارها ويقلل حياء مرتكبها فلا يستحي أن يرتكب غيرها. لذلك كان إظهار المعصية هو معصية مستقلة إضافية. فعلى من ابتُلِيّ بمعصية وسترها الله عليه أن لا يفضح نفسه بل عليه أن يتوب منها لعل الله تعالى يغفرها له، فقد ورد عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **"ما سَترَ اللّهُ على عَبد ذنبًا في الدنيا إلاّ سَترَهُ عليه في الآخِرَةِ»** [رواه مسلم]، وعلى المبتلى بالمعصية أن يدعو الله تعالى أن يعينه لكي يتخلص منها. إن الله تعالى لا يحب أن تشيع الفاحشة أو مخالفة الشرع بين المؤمنين، فمن أفطر في رمضان فقد عصى الله تعالى، أما من جاهر بإفطاره فقد جاهر بمحاربة الله تعالى. وعلى المؤمن أن يجتنب مواضع التهم، فالمسافر أو المريض المرخص له بالإفطار لا يحق له إعلان إفطاره وعليه أن يستتر في طعامه وشرابه.

هناك من يظن أن إخفاء الفاحشة هو من النفاق، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار. لذلك تجده يتحدث عنما ارتكبه من فواحش وآثام ظانًّا أن ذلك يعفيه من

صفة النفاق. والحق أن المفاخرة بارتكاب الموبقات هو مجاهرة بمحاربة الله وإشاعة للفواحش بين المؤمنين، وهو مرتكب بذلك إثمًا إضافيًا فوق إثمه، وقد فقد الحياء بالتحدث عن الآثام مفاخرة. إن سكوت المبتلى بالفاحشة وهو كاره لها ليس معناه النفاق، بل المنافق الذي يفعل الفاحشة وهو راض عنها ثم يتظاهر بالصلاح تكلفًا ورياء.

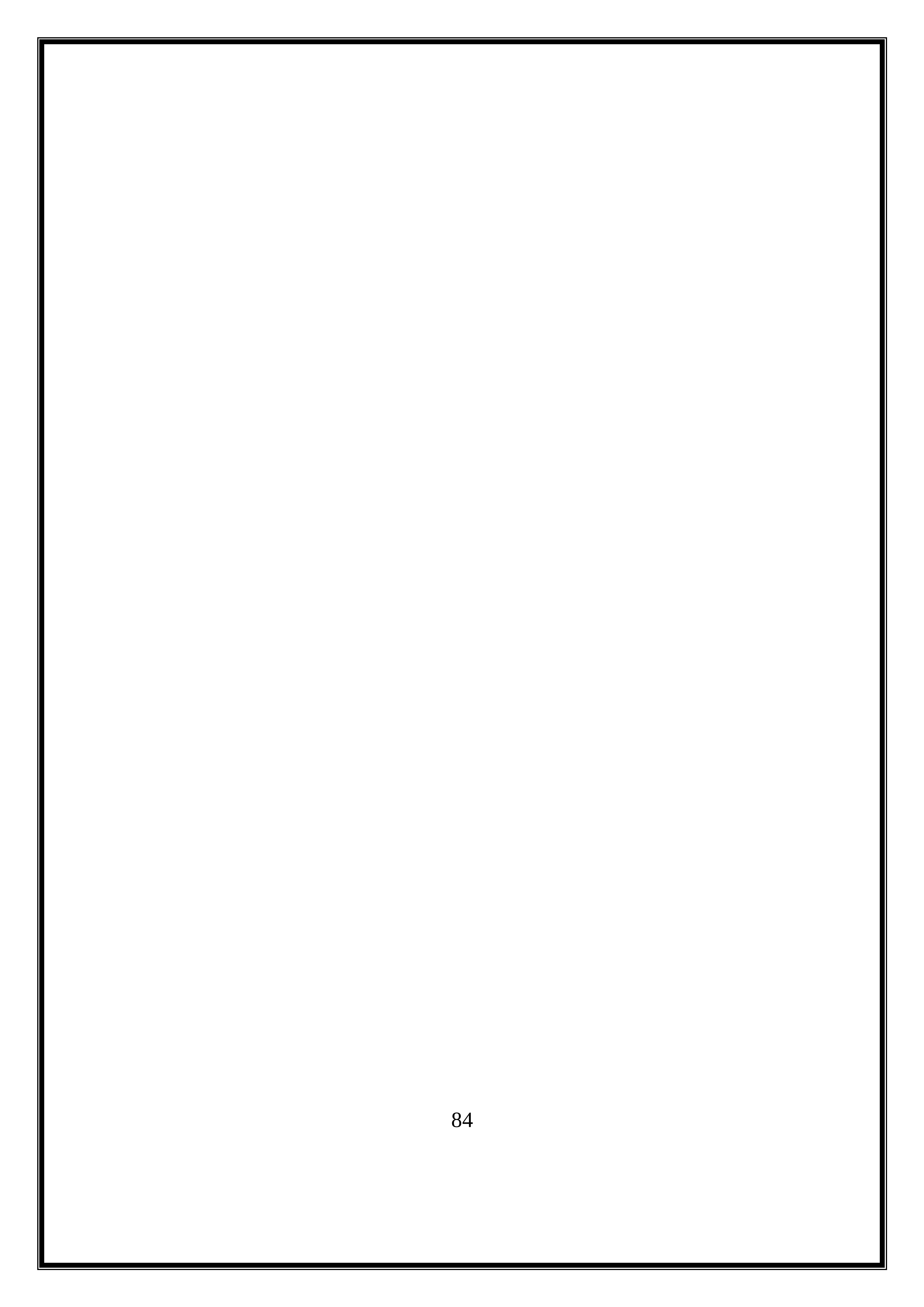
٦٣ـ عدم إستصغار المحقرات من الذنوب وإجتنابها

عن سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«إيّاكُم وَمُحقَرات الذّنوبِ، فإنّما مَثَلُ مُحقَرات الذّنوبِ كَمَثَلِ قوم نَزَلوا بَطنَ واد فَجاءَ ذلكَ بعود وجاءَ ذا بعود، حَتّى حَمَلوا ما أنضَجوا بهِ خُبزَهُم، وإنّ مُحقَرات الذّنوبِ مَتى يؤخَذُ بها صاحِبُها تهلِكُهُ» [رواه مسلم وأحمد وأبو داود]

إن محقرات الذنوب هي الصغائر التي يستهين بها المرء، فإن أكثَرَ منها واستهان بها أوردته النار، لذلك قيل: لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار. وعلى المرء أن لا ينظر إلى صغر ذنبه ولكن عليه أن ينظر إلى من يعصي؟ فالمعصية الصغيرة هي معصية لله عز وجل وهي تشترك في هذه الصفة مع الكبائر. وما على المرء إلاّ أن يتبع الذنوب بالاستغفار وبصالح الأعمال.

إن من محقرات الذنوب العادات الذميمة التي يعتادها المرء ولا يكلف نفسه بالإقلاع عنها. فالعادة تتكرر على الدوام، فتتكرر المعصية مرات كثيرة وبذلك تزداد العقوبة عليها. وعلى المرء الذي ابتلي بعادة سيئة أو إعتاد مخالفة معينة لكتاب الله وسنة رسوله أن يجهد نفسه بالإقلاع عنها قدر الإمكان، حتى ولو كان ذلك بعض الأحيان. إن مجاهدة النفس لكي تقلع عن عادة سيئة هي من صالح الأعمال، وقد يثيب الله تعالى المرء بمساعدته على الإقلاع عن تلك المعصية نهائيًا أو أن يغفرها له. أما عدم الاكتراث بالسيئات الصغيرة والإكثار منها فهو ما يحذر منه رسول الله ﷺ هنا وهي التي قد تهلك مرتكبها.



الباب الخامس
الاستقامة في العادات

٦٤ـ الصدق

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ :

"إنَ الصِدقَ يَهدي إلى البّر وإنَ البرّ يهدي إلى الجَنّةِ، وإنَ الرجُلَ ليَصدِقُ حتى يُكتبَ عِندَ اللّه صِدّيقًا، وإنّ الكَذِبَ يهدي إلى الفُجورِ وإنّ الفُجورَ يَهدي إلى النّار، وإنّ الرَجُلَ ليَكذِبُ حتى يُكتبَ عِندَ اللّهِ كَذابًا» [متفق عليه]

قال أحمد بن خضرويه[1]: مَن أراد أن يكون مع الله فليلزم الصدق فإن الله تعالى يقول:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]. إن أفضل الصدق هو الصدق مع الله في السر والعلن أي أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. أما الصدق مع العباد فمنه صدق بالقلب وهو صدق العزم على أداء ما يريد، وصدق باللسان وهو الإخبار بالشيء على حقيقته، وصدق بالعمل وهو إيقاع العمل كما يجب. والصادق يوافق قصده قوله و فعله.

الصدق مع الناس يجب أن يكون أساس التعامل. ولا يريد الله أن يبنى المجتمع إلاّ على أساس من الصدق، فإذا كان ذلك، عاش الناس في طمأنينة وسعادة. أما إن كان الأساس هو الكذب تعب الناس وشقوا في دنياهم قبل أخراهم. ولقد أوصى رسول الله ﷺ بالصدق حتى أنه نهى عن نقل كلام يعرف الإنسان أنه كذب دون أن ينبه على ذلك وكفى بالمرء كذبًا أن ينقل كل ما سمع. وقد مر بنا في الحديث برقم (٥٦) في الباب الرابع قوله أن المؤمن يجبل على كل خلق ليس الكذب والخيانة. قال بعض الصالحين: عليك بالصدق حيث تخاف أن يضرك فإنه ينفعك، ودع الكذب حيث ترى أنه ينفعك فإنه يضرك.

شاع بين الناس أن هناك كذبًا أبيضًا وكذبًا أسودًا. الكذب بصورة عامة حرام فهو أسود كله. إلاّ أن هناك إستثناءات ضرورية في حالات خاصة، وهي حالات إختيار أخفّ الضررين. فإذا كان الإثم الذي يقع نتيجة الإخبار بالحقيقة أكبر من الإثم عند عدم ذكرها، كحالات الصلح بين المتخاصمين الذين يذكر أحدهما الآخر بسوء، فمن نقل أفضل ما سمع من أحدهما عن الآخر لم يكن كاذبًا. كما أن الإخبار

---

(١) أبو حامد أحمد بن خضرويه البلخي من كبار مشايخ خراسان، صحب أبا تراب النخشبي، توفي سنة. ٢٤٠ هـ وقد بلغ ٩٥ سنة، وكان عليه دين عند وفاته وقد حضر غرماؤه، فنظر إليهم وقال اللهم إنك جعلت الرهون وثيقة لأرباب الأموال وأنت تأخذ عنهم وثيقتهم، فأدّ عني، فطرق الباب طارق وقال أين غرماء أحمد، فأدّى عنه، ثم توفي رحمه الله.

بالمعاريض (أي التلميح أوالتمويه) وسيلة لتحاشي الكذب. ورد عن رسول الله ﷺ (السيرة النبوية، لأبن هشام) أنه حينما سأله أعرابي قبيل معركة بدر أنتم ممن؟ فقال: " نحنُ من ماء "، فانصرف الأعرابي وهو يقول من أي ماء؟ أمن ماء العراق؟ بينما كان جواب رسول الله ﷺ مشتقًا من قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٤٥]. فلم يكذب رسول الله ﷺ ولم يستفد الأعرابي من جوابه شيئًا، وهكذا على المؤمن أن يتخلص من المواقف الصعبة دون أن يخالف الشريعة بالكذب. وكثيرًا ما تكون النجاة في الصدق. كان الشيخ محمد الرضواني[1] رحمه الله في مسجده فدخل عليه رجل هاربًا ممن يريد أن يبطش به ظلمًا، وطلب من الشيخ إجارته، فأشار إليه أن يلف نفسه بحصير في المسجد. فلما دخل من يطلبه وسأل عنه الشيخ، تذكر أن النجاة في الصدق وهو موقن بذلك، فقال له هناك مشيرًا إلى الحصير، فظن الرجل أنه يهزأ به، فانتهره وخرج، ونجا الرجل الهارب.

إن أحد أصناف البلاء الذي إبتلي به المسلمون اليوم هو الكذب. ففي الوقت الذي ترى فيه أممًا أخرى تستند اليوم في معاملاتها بين أفرادها على الصدق، وتربي أطفالها عليه من نعومة أظفارهم، بينما المسلمون اليوم، الذين أمرهم دينهم بالصدق، ترى الكذب شائعًا بينهم بكثرة، حتى إنك لتجد بينهم اليوم من يفخر به، بينما كان عرب الجاهلية يستحيون أن يعرفوا بالكذب. فحينما أدخل أبو سفيان بن حرب مع نفر من قومه وكان مشركًا عقب صلح الحديبية على هرقل في أرض الشام، وقد وصله كتاب رسول الله ﷺ حينما دعاه إلى الإسلام، فسأل هرقل أبا سفيان جملة أسئلة عن رسول الله ﷺ فلم يكذب عليه، وكانت إجاباته كلها مدحًا لرسول الله ﷺ خشية أن يعرف أمام قومه بالكذب، فهو خلق ذميم كانت تأبى أنفسهم أن يعرفوا به.

٦٥ـ الحياء

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مر برجل من الأنصار يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ :

«دَعهُ فإنَ الحياءَ مِن الإيمانِ» [متفق عليه]

وفي رواية لمسلم: "الحياءُ كلُّهُ خير». الأنصاري كان يعظ أخاه أن يترك الخجل لأنه كان يتصور أن الخَجل يفقد الإنسان كثيرًا من الحقوق كما يتصور البعض اليوم. وهنا ينهاه رسول الله ﷺ عن هذا التصور للحياء.

فالحياء خلق رفيع وهو عند المرأة أجمل. الحياء يمنع الإنسان عن الاتصاف بالأخلاق الوضيعة وعن السمعة السيئة وعن الأقوال الفاحشة وعن كل ما لا يرضاه

(١) محمد بن عثمان الرضواني ولد بالموصل عام ١٢٦٩هـ وأخذ العلم عن علمائها، إشتهر بالعلم الغزير والتقوى والصلاح، وتخرج على يده أكابر علماء الموصل، توفي رحمه الله عام ١٣٥٧هـ.

الطبع السوي. أما إذا فقد المرء الحياء فإنه يفعل ما يشاء من معاصٍ أو آثام أو سوء خلق ولا يخشى في ذلك لوم قريب أو بعيد، وقديمًا قيل إذا لم تستحي فاصنع ما شئت..

وأعلى درجات الحياء هو الحياء من الله أن يجده ربه حيث ينهاه. قال ﷺ : "**إستحيوا من اللّهِ حقَ الحياء»**، قالوا يا رسول الله كلنا نستحيي من الله قال: " **ليسَ كذلك الحياءُ من اللّهِ، ولكن الحياء من اللّه أن لا تنسوا المَقابرَ والبَلى، وأن لا تنسوا الجوفَ وما وعى، وأن لا تنسوا الرأسَ وما احتوى، ومَن يَشتهي كَرامَةَ الآخِرَةِ يَدَع زينة الحياة الدُنيا»** [أخرجه أبو نعيم والطبراني، وفي رواية أخرى أخرجها أحمد. والترمذي والحاكم والبيهقي، ورد فيها: وليذكر الموت والبلى]، و ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. وقد كان عباد الله الصالحون من هذه الأمة ينصرفون من الصلاة على إستحياء من الله تعالى حيث هم موقنون بتقصيرهم، وبذلك كانوا من الذين: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]

الحياء الذي يمنع تعلم العلم والدين مذموم. وليس المقصود هنا نزع الحياء فيهما بل التغلب على الحياء عندما يمنع من التعلم للعلوم الدنيوية أو الأخروية. وقد كان نساء الأنصار لا يمنعهن الحياء أن يسألن رسول الله ﷺ عن أمور دينهن وقد نلن المدح منه على ذلك.

٦٦- حفظ اللسان

عن معاذ بن جبل قال قلت يا رسول الله أنؤاخَذُ بما نقول؟قال ﷺ :

"ثكِلَتكَ أمُكَ يا مُعاذ وهل يَكُبّ الناسَ في النار على مَناخِرِهِم إلاّ حَصائِدُ ألسِنَتِهِم».

[أخرجه الترمذي وصححه وإبن ماجه والحاكم]

قال عمر بن عبد العزيز ﷺ: من عدّ كلامه من عمله قلّ كلامه. وقال عبد الله ابن مسعود ﷺ: ما من شيء أحق بطول السجن من اللسان. وعلى المرء أن يتذكر على الدوام قوله تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٨]. وقال بعض الحكماء إنما خلق للإنسان لسان واحد وعينان واذنان ليسمع ويبصر أكثر مما يقول، ثم أنه حبس بأربعة أبواب الشفتان مصراعان والأسنان مصراعان. وما يحصل الحكماء على الحكمة إلاّ بالتفكر والصمت.

للسان آفات لاتعادلها آفات عضو آخر في البدن. فمن آفاته الكذب، والوعد الكاذب، والغيبة، والنميمة، والمزاح، والمراء، والجدل، والفحش في الكلام، والكلام فيما لايعني وفضول الكلام، والخصومة، واللعن، والسخرية والاستهزاء، والحلف

الكاذب، والخوض في الباطل، والتقعر، والتشدق، والتكلف في الكلام، والغناء، وقول الشعر الماجن، وإفشاء السر، والمدح أمام الممدوح، والذم بما لا يستحق ...ومثل هذه الآفات يستحق كل واحد منها الحذر من الوقوع في مساوئه، وكلها من آفات اللسان. لذلك على المؤمن أن **يقول خيرًا أو ليصمت** (متفق عليه)، وعلى المؤمن أن يراقب كلامه أكثر من كلام الناس، فلا يتكلم إلاّ بعد رَوِيَّة وتفكر، فإذا ما نطق بالكلمة، خرجت الكلمة من سيطرته وأصبحت ملك من سمعها. أما قبل ذلك فهي ملكه إن شاء تفوه بها وإن شاء كتمها. وعلى المرء أن لا يستهين بالكلمة، فرب كلمة أحدثت فتنة، ورب فتنة تسببت في إزهاق أرواح أو في خصام وشقاق. ألا تستحق مثل تلك الكلمة أن يهوي بها صاحبها في جهنم، كما قال عليه الصلاة والسلام: **"إنّ الرجُلَ ليَتكَلّم بالكَلِمَةِ من سَخَطِ اللّهِ ما يَظُنّ أن تبلُغَ ما بَلَغَت فيَكتبُ اللّهُ عليه بها سَخَطَهُ إلى يوم القيامَة»** [رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد وابن حبان والحاكم]. وهكذا يكون اللسان واحدًا من أكثر ما يدخل الناس النار كما سيأتي في الحديث الآتي.

٦٧ـ حسن الخلق

عن أبي هريرة ﷺ قال: سُئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، قال: **"تقوى اللّه وحُسنُ الخُلقِ»**، وسُئِل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: **"الفَمُ والفَرجُ»**

[رواه الترمذي وقال حسن صحيح]

سبق أن مر بنا في الحديث (٤٦) قوله ﷺ **"أن البر حسن الخلق»**. مدح الله تعالى رسوله ﷺ فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[القلم: ٤]. وقد بلغ من حسن خلقه أن كان يقابل عداء قومه له بدعائه: **"اللّهُمّ اهد قومي فإنّهُم لا يَعلمون»** [متفق عليه]، وكان أنس بن مالك ﷺ يقول: خَدمتُ النبي عشر سنين فما قال لشيء فعلته لِمَ فعلته ولا لشيء تركته لم تركته [متفق عليه]. وكان من دعائه ﷺ: **"اللّهم إهدِني لأحسَنِ الأخلاقِ، لا يَهدي لأحسنِها إلاّ أنت، واصرف عني سيّئها لا يصرف سيّئها إلاّ أنت»** [أخرجه مسلم]

روي أن أمير المؤمنين علي ﷺ دعا غلامًا له فلم يجبه فدعاه ثانيًا وثالثًا فلم يجبه، فقام إليه فرآه مضطجعًا فقال أما تسمع يا غلام، فقال نعم، قال فما حملك على ترك جوابي؟ فقال أمنت عقوبتك فتكاسلت، فقال إمض فأنت حر لوجه الله تعالى. وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما إذا رأى واحدًا من عبيده يحسن الصلاة يعتقه، فعرفوا ذلك من خلقه فكانوا يحسنون الصلاة مراآة، وكان يعتقهم، فقيل له في ذلك فقال من خَدعنا في الله انخدعنا له. وكان الفضيل بن عياض يقول: لئن يصحبني فاجر حسن الخلق أحب إليّ من أن يصحبني عابد سيئ الخلق. وعرّف الحرث المحاسبي حسن الخلق بقوله: إحتمال الأذى، وقلة الغضب، وبسط الوجه، وطيب الكلام.

المؤمن يكون حسن الخلق، يألف الناس ويألفونه، ويحسن معاملتهم ويبسط وجهه لهم، وإذا غضب تذكر ففاء. وإذا لم تكن أخلاقه كذلك جاهد نفسه لكي يحسِّن

خلقه ويدعو الله أن يعينه على ذلك، ومجاهدة النفس في ذلك من أقرب القربات إلى الله تعالى.

والحديث من جوامع الكلم فهو يحث على التقوى كذلك ويحذر من شهوات الطعام والكلام الذان هما مما ينتج من الفم ومن شهوة الفرج.

٦٨ـ إجتناب الغضب

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«ليسَ الشديد بالصرعةِ إنّما الشَديدُ مَن يَملِكُ نفسَهُ عنـد الغضَبِ». [متفق عليه]

مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. وكذلك: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[الشورى: ٣٧]. فالغضب محتمل على ابن آدم ولكن ما مطلوب هو عدم فقدان العقل والسيطرة على النفس أثناء الغضب بحيث لا يرتكب أثناء غضبه ما لا يحبه الله من قول أو فعل.

كان رسول الله ﷺ لا يغضب لنفسه، وربما تطاول عليه بعض الجهلة أمام أصحابه فلا يغضب، وينهى أصحابه أن يؤذوا مثل هؤلاء الجهلة ويأمرهم بالترفق بهم. أما إذا ما ارتكبت حرمة من حرمات الله تعالى فكان يغضب، وربما يشتد غضبه فيأمر من ينادي بالناس لكي يبين لهم ما أشكل عليهم. وكان ﷺ ينصح لمعالجة الغضب بالوضوء فقد ورد عنه ﷺ: **"إذا غضب أحدكُم فليتوضأ بالماءِ فإنّما الغضَبُ منَ النّارِ»** [رواه أبو داود]، أو أن يلصق خده بالتراب، وذلك تذكرة للإنسان بأن نهايته هي الموت وأن لا شيء من أمر الدنيا يستحق أن يغضب عليه لأن نهايته الفناء.

إن نهي المؤمن نفسه عن هواها عند ثوران غضبه وكبت تلك الأهواء هو من مجاهدة النفس، وفي ذلك يمدح رسول الله ﷺ من يستطيع ذلك ويصفه بالشدة، وكلما كان كبت تلك الأهواء أسرع كلما كان ذلك أكثر ثوابًا وأعظم أجرًا، فإن سرعة الفيء بعد الغضب دليل ضبط النفس ومخالفة هواها.

قيل لعبد الله بن المبارك: أجمِل لنا حسن الخلق في كلمة قال: أترك الغضب. وقال عبدالله بن عمر ما جرع رجل جرعة أعظم أجرًا من جرعة غيظ إبتغاء وجه الله.

٦٩ـ العفو

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **"ما نَقصَت صَدَقَة من مال، وما زادَ اللَّهُ عبدًا بعَفو إلاّ عِزًّا، ومَا تواضعَ أحَد للّهِ الاّ رَفعَهُ»** [رواه مسلم والترمذي]

قال الله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، **وقال: "وَأن تعْفُوا أقرَبُ لِلتقوَى»** [البقرة: ٢٣٧]، وقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ

﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]، عن مبارك بن فضالة قال وفد سوار بن عبد الله في وفد من أهل البصرة إلى أبي جعفر المنصور، قال: كنت عنده إذ أتي برجل فأمر بقتله فقلت يقتل رجل من المسلمين وأنا حاضر، فقلت يا أمير المؤمنين ألا أحدثك حديثًا سمعته من الحسن قال ومًا هو قلت سمعته يقول: إذا كان يوم القيامة جمع الله عز وجل الناس في صعيد واحد حيث يسمعهم الداعي وينفذهم البصر فيقوم مناد فينادي من له عند الله يد فليقم فلا يقوم إلاّ من عفا فقال: والله لقد سَمعتَه من الحسن؟ فقلت والله لقد سمعتُه منه فقال خلينا عنه.

قال بعضهم: ليس الحليم من ظُلم فحلم حتى إذا قدر إنتقم، ولكن الحليم من ظُلم فحلم حتى إذا قدر عفى.. وقال عمر ﷺ: تعلّموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم. وقال علي ﷺ: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك، وأن لا تباهي الناس بعبادة الله، وإن أحسنت حمدت الله وإن أسأت إستغفرت الله تعالى.

إن ما ورد في هذا الحديث حث على عدم الحقد على الناس نتيجة أذاهم ومعاملتهم بالعفو، وليس ذلك ظاهرًا فقط فيما بينه وبينهم، بل وباطنًا أيضًا فيما بينه وبين الله تعالى، فهو يعفو عنهم ويدعو الله أن يهديهم، كما حكى رسول الله ﷺ عن نبي يدعو: "**اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون**» [متفق عليه]، بعد أن ضربوه فأدموه، لذلك فهو يعفو عن أذاهم لشخصه. أما من أصر على محاربة الله ورسوله ودينه فلا عفو معه لأن حق الله تعالى في إقامة حدوده ليس بيد الناس إن شاؤوا أخذوا به وإن شاؤوا عفو عنه، بل ذلك لله وحده وهو قد فرض حدوده لإقامة الحياة. أما شؤونهم الخاصة فقد حثهم الله تعالى على العفو عنها، في هذا الحديث.

لما حلف أبو بكر ﷺ أن لا ينفق على مَسْطَح (وكان أحد أقاربه) حيث كان من بين الذين تحدثوا بحديث الإفك عن عائشة رضي الله عنها، وكان قبل ذلك ينفق عليه، نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾[النور: ٢٢]، فقال أبوبكر: نعم نحب ذلك وعاد إلى الإنفاق عليه [متفق عليه]. وهكذا فالمؤمن لا يحقد على أحد، بل يعفو ويصفح، لكنه كَيّسٌ فطن ولا يلدغ من جحر مرتين.

في عام الحديبية، حاول ثمانون رجلاً من التنعيم صلاة الصبح ليقتلوا رسول الله ﷺ بغتة، فأمسكهم أصحاب النبي ﷺ وجاؤوا بهم إليه، فأعتقهم وأطلقهم [رواه مسلم]، كما ورد عنه ﷺ أنه عفى عن الشاعر أبي عزة الجمحي بعد أسره في معركة بدر بعد تعهده أن لا يحارب المسلمين، ولا يهجو رسول الله ﷺ ولا المسلمين، لكنه أخلف وعده بعد أن خضع لضغوط المشركين واشترك في غزوة أحد، فأسره المسلمون وعند ذلك أمر الرسول ﷺ بقتله. فذلك العفو هو جزء من وسائل الدعوة في تأليف القلوب وتحبيب الإيمان إلى النفوس.

وتطاول رجل على الإمام أبي حنيفة ﷺ قائلاً: يا مبتدع يا زنديق، فقال أبو حنيفة: غفر الله لك، ألله يعلم مني خلاف ما قلتَ، وإني ما عدلت به أحدًا منذ عرفته ولا أرجو إلاّ غفرانه ولا أخاف إلاّ عقابه، ثم بكى عند ذكر العقاب وسقط صريعًا، فلما أفاق قال له الرجل إجعلني في حل، فقال كل من قال فيّ شيئًا من الجهل فهو في حِلٍّ (حيث أن ذلك من حقوق نفسه فعفى عنه)، ومن قال فيّ شيئًا مما ليس فيّ من أهل العلم فهو في حرج، فإن غيبة العلماء تُبقِي شيئًا بعدهم (أي لا ينتهي أثرها بعد الكلام - لاحظ أن هذا من حقوق الله تعالى وليس من حقوق نفسه فلم يعف عنه). وهكذا فإن العلماء الأتقياء يسيرون على هدي رسول الله صلى الله عليه في العفو عن حقوق أنفسهم. أما حقوق الله المتمثلة بغيبة وذم العلماء الأتقياء عن علم بذلك فهي موكلة لله تعالى.

٧٠ـ التواضع

عن عياض بن حمار ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :

"إن اللهَ أوحى إليَ أن تواضَعوا حَتى لا يَفخَرَ أحَد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»

[رواه مسلم]

التواضع من سيد الأخلاق والتكبر من سيئها. حكي عن الحسن البصري أنه ذكر قوله تعالى: **"وَعِبادُ الرَحمَنِ الذينَ يَمشونَ على الأرض هونا»** [الفرقان: 63]، فقال: المؤمنون قوم ذلل، ذلت لله الأسماع والأبصار والجوارح حتى يحسبهم الجاهل مرضى، والله ما بالقوم من مرض وإنهم لأصحاء القلوب ولكن دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة. وقال بعض العلماء [١]: من أعطي مالاً أو جمالاً أو ثيابًا أو علمًا ثم لم يتواضع فيه كان عليه وبالاً يوم القيامة. وقال موسى بن القاسم كانت عندنا زلزلة وريح حمراء فذهبت الى محمد بن مقاتل [٢]،فقلت يا أبا عبد الله أنت إمامنا فادع الله عز وجل لنا، فبكى ثم قال ليتني لم أكن سبب هلاككم. قال فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال إن الله عز وجل رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل. وهذا دأب الصالحين لا يرون لعبادة أنفسهم وتقواها أية قيمة تجعلهم يعجبون بأنفسهم ولا يرون أن لهم فضلاً على غيرهم. هذا في العبادة والتقوى فما بالك بالمال والجاه أو متاع الحياة الدنيا؟

(١) هو قتادة بن دعامة السدوسي كان أكمه ضريرًا، وكان عالمًا بالحديث والعربية والأنساب والتأريخ والتفسير، قال عنه الإمام أحمد أحفظ أهل البصرة، مات بواسط بالطاعون عام ١١٨هـ عن ٥٧ سنة.

(٢) محمد بن مقاتل الرازي من تابعي التابعين كان يحدث عن وكيع.

إن التكبر أحد الأسباب الرئيسة للكفر. قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦]. ولم يكن سبب عناد فرعون هذه الأمة، أبوجهل[1] إلا تكبره، فحينما سئل عن سبب عدم إسلامه مع معرفته أن رسول الله ﷺ ليس بكاذب، قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء! فمتى ندرك هذا؟ والله لا نسمع له أبدًا ولا نصدقه. فالتكبر هذا بسبب الجاه والشرف وعزة القوم والعشيرة أو في حالات أخرى بسبب المال أو المنصب أو العلم أوالذكاء والمقدرة أو كثرة الأتباع، إنما هو من تسويل الشيطان.

إن العلاج الناجع للتكبر هو بمخالفة سببه عمليًا، فإذا وجد المرء داعيًا للتكبر بسبب المال، عليه أن يعالجه بمخالطة الفقراء والتواضع لهم ومنحهم الصدقات دون منّ أو شعور بأن له فضلاً عليهم. وإن كان تكبره بسبب العلم والذكاء والعقل فعليه التواضع لمن يمكن أن يتعلم منه شيئًا جديدًا. ركب زيد بن ثابت فدنا منه ابن عباس ليأخذ بركاب فرسه، فقال مهٍ! يا بن عم رسول الله فقال هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا. فأخذ زيد بن ثابت يد ابن عباس فقبَّلها وقال هكذا أُمرنا أن نفعل بأهل بيت رسول الله ﷺ. وقال عروة بن الزبير رأيت عمر بن الخطاب ﷺ على عاتقه قربة ماء، فقلت يا أمير المؤمنين لا ينبغي هذا، فقال لما أتاني الوفود سامعين مطيعين دخلت في نفسي نخوة فأحببت أن أكسرها، ومضى بالقربة إلى حجرة إمرأة من الأنصار فأفرغها في إنائها. ورؤي أبو هريرة ﷺ وهو أمير المدينة وعلى ظهره حزمة حطب وهو يقول طَرِّقوا (اي إفسحوا الطريق) للأمير. وقال ابن عباس من التواضع أن يشرب الرجل من سؤر أخيه.

سئل الفضيل بن عياض عن التواضع فقال أن تخضع للحق وتنقاد له وتقبله ممن قاله. وكان يقول قراء الرحمن أصحاب خشوع وتواضع وقراء الدنيا أصحاب عجب وتكبر. تشاجر أبو ذر وبلال رضي الله عنهما فقال أبو ذر لبلال يا إبن السوداء، فشكاه إلى رسول الله ﷺ، فقال له: **"أعيَّرتهُ بأمهِ إنّكَ امرؤ فيكَ جاهليـة»**، فألقى أبو ذر نفسه على الأرض وحلف أن لا يرفع رأسه حتى يطأ بلال خده بقدمه فلم يرفع رأسه حتى فعل بلال ذلك. [متفق عليه]

---

(١) أبو جهل عمرو بن هشام زعيم الكفار وفرعون هذه الأمة، كان أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ، قتل في معركة بدر.

٧١ـ ترك مالا يعني

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **"من حسنِ إسلامِ المَرء تركُهُ ما لا يَعنيهِ»**

[رواه الترمذي وابن ماجة]

إن الله تعالى قد خلق الخلائق مختلفين، فما يصلح لبعض من أمور حياتهم لا يصلح للبعض الآخر. لذلك على المرء أن يهتم بإمور نفسه ولا يتتبع ما لا يعنيه، ولا يسأل عن ذلك، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠١]، كما أمر رسول الله ﷺ بالاستعانة على قضاء الحوائج الشخصية بالكتمان، وهذا يبعد الناس عن النظر بعضهم إلى بعض وحسد بعضهم بعضًا وتدخل البعض في شؤون بعض بما يؤدي إلى الخلاف والبغضاء والأحقاد. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وهو موضوع عدم التدخل في شؤون الآخرين التي لا تستطيع لها تغييرًا وليس في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي تستطيع تغييره بالحكمة والموعظة الحسنة. ولهذا يجب عدم الاعتراض والعيب على الناس، فكل إنسان قد يسره الله تعالى لما خُلق له، ومن أعاب شخصًا على خُلق فيه ليس من إرادته إبتلاه الله بمثله، فإن العقوبة تكون من جنس العمل.

نهى رسول الله ﷺ عن كثرة السؤال، وقد مقت الله بني إسرائيل وشدد عليهم بكثرة أسئلتهم لأنبيائهم، ثم بعد ذلك عدم إطاعة أوامرهم. فالمؤمن لا يعترض على أحكام الله تعالى وما ينزل من مصائب ومحن بل يقبلها، لكنه لا يرضى بالمعاصي والآثام، فيقاومها ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، لكنه لا يتدخل فيما لا يعنيه، وفي شؤون غيره، فيصرف كل جهده على نفسه فيصلح حالها. فما الذي ينفعه إن نجى الناس كلهم وهلك هو؟ إن على المؤمن أن يهتم بأمر نفسه، حتى إنه ليعتبر أن دعوته ومساعدته لغيره هي أمر يخص نفسه لأن في ذلك امتثالها لأمر الله تعالى. أما ما وراء النصح والإرشاد والمساعدة من تدخل في أمور الآخرين، فإن المؤمن يمسك عن ذلك لأنه لا يحب أن يتدخل الآخرون في شؤونه، فكذلك هو يحب لهم ما يحب لنفسه.

٧٢ـ غض البصر

عن جرير[١] ﷺ قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة فقال:

"إصرِف بَصَرَكَ» [رواه مسلم]

قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[النور:٣٠-٣١]، فالمجتمع الإسلامي مجتمع نظيف، ليس فيه خيانة لا في العيون ولا في الصدور. وأول حارس لذلك هو غض البصر. ومن غض بصره وهبه الله تعالى إيمانًا يجد حلاوته في قلبه. فمن أراد أن يستمتع بمثل هذه الحلاوة فليغض من بصره تنفيذًا لأمر الله. ولا عبرة بمن يقول بأنه يملك السيطرة على نفسه فليس بحاجة إلى غض البصر، فلو كان ذلك صحيحًا لأُحِلّ ذلك لخير البشر رسول الله ﷺ.

يتبين من الحديث أن النظرة الأولى التي تأتي عن غير قصد معفوٌ عنها. أما النظرة الثانية أو استدامة الأولى فهي محاسب عليها، وسواء في ذلك الرجال والنساء.

فالنظرة سهم من سهام إبليس، من تركها وهبه الله تعالى إيمانًا يجد حلاوته في قلبه. إن المجتمع الإسلامي يحفظ أعضاءه رجالاً ونساء من الانزلاق في الفواحش، وما فَرْضُ الحجاب والأمر بغض البصر سوى وسائل وقائية لإبقاء المجتمع نظيفًا من أي سوء أو خيانة أو فاحشة، حفاظًا على كيان الأسرة وقيام المجتمع على فضائل الأخلاق والابتعاد عن سفاسفها.

73 ـ السخاء

عن أبي أمامة صُدي بن عجلان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **"يا ابن آدم إن تبذِل الفَضلَ خيرٌ لَكَ، وإن تمسِكهُ شَرّ لَكَ، ولا تلامُ على كفاف، وابدأ بمَن تعولُ، واليَدُ العُليا خير مِنَ اليَدِ السُفلى»** [رواه مسلم]

السخاء من أفضل الصفات. والسخي قريب من الله لامتثاله لما يحبه الله، وقريب من الناس لبذله أمواله لهم، والبخيل قريب من النار لمنعه ما يأمره الله به. فإذا دفع البخل الرجل إلى منع الزكاة المفروضة دخل النار بذلك.

---

(١) جرير بن عبد الله بن مالك. إختُلف في وقت إسلامه، كان قائد بجيلة في فتح العراق، وكان له أثر عظيم في معركة القادسية، كان يقول ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت ولا رآني إلاّ تبسم. كان صبيح الوجه لذا كان عمر يكنيه يوسف هذه الأمة، توفي عام ٥١هـ.

لقي رجل من أهل منبج رجلاً من أهل المدينة فقال له ممن الرجل؟ قال من أهل المدينة، فقال لقد أتانا منكم رجل يقال له الحكم بن المطلب فأغنانا، فقال المدني فكيف وما أتاكم إلاّ بجبة صوف؟ فقال ما أغنانا بماله ولكنه علّمنا الكرم فعاد بعضنا على بعض حتى استغنينا. ومرض قيس بن سعد بن عبادة(١)، فاستبطأ إخوانه فسأل عنهم، فقيل يستحيون مما لك عليهم من دين، فقال أخزى الله تعالى مالاً يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر من ينادي من كان لقيس عليه دين فهو منه في حل، فكسرت عتبة داره بالعشي لكثرة من عاده. وسألت إمرأة الليث بن سعد سكرجة عسل، فأمر لها بزق من عسل، فقيل له في ذلك!! فقال إنها سألت على قدر حاجتها ونحن نعطيها على قدر نعمنا.

يقرر هذا الحديث نفي اللّوم عن المرء الذي يبذل ماله بحيث كلما رزقه الله شيئًا بذله فتكون عيشته كفافًا، فإن أفضل الصدقة أن ينفق المرء وهو في عيشة متوسطة يخشى الفقر ويرجو الغنى، وأول الناس الذين عليه أن يبدأ بهم هم أهل بيته الذين عليه إعالتهم شرعًا. أما أخذ الصدقات لمن هو ليس بحاجة إليها فمذموم لأن اليد التي تدفع الصدقة خير من التي تأخذها. وعلى من يدفع أن يشعر بالمنة لمن أخذ منه لأنه لولا وجود ذلك المحتاج وأمثاله لما إستطاع أن ينفذ واجبًا فرضه الله عليه ألا وهو الزكاة.

٧٤ـ رحمة العباد

عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ :

"**إِرحَم مَن في الأَرض، يرحَمكَ مَن في السَماء».** [رواه الطبراني والحاكم]

الرحمة من صفات الرحمن الرحيم وهو يريد أن يتصف بها عباده بعضهم نحو بعض. وقد خلق الله بين الناس وشائج تراحم طبيعية كرحمة الأم لولدها، فمن رحم غيره إستحق رحمة الله تعالى، وفي رحمة الإنسان لأخيه الإنسان سواء كان على دينه أم لا وفي رحمة الإنسان للحيوان، في كل ذلك أجر عظيم. وفي زوال التراحم بشير بغضب الله تعالى فقد قال رسول الله ﷺ: **«دخلت إمرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت»** [رواه البخاري وأحمد والبيهقي وابن ماجة]

إن الرحمة تتجلى في كل شيء: في ملاطفة الوالد لولده، وفي إحسانه لأهل بيته، وفي معاملته مع الناس، وفي معاملته لعدوه قبل صديقه، وفي معاملته للبهائم،

(١) قيس بن سعد بن عبادة، كان أبوه وجده سادة الخزرج. شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وكان معه بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير كما روى ذلك الإمام البخاري عن أنس بن مالك. قلده الرسول ﷺ لواء الأنصار بعد أن أخذه من أبيه في فتح مكة بعد أن كاد أبوه أن يحدث مشكلة كبيرة بإنشاده: اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة. عُيّن قيس واليًا على مصر من قبل علي بن أبي طالب. توفي في آخر خلافة معاوية في المدينة.

وفي تعامله حتى مع الجماد، فالله تعالى أمر بعدم الإسراف في كل شيء، وأمر بالمشي على الأرض هونًا وما هذا وذاك إلاّ دليل على سعة رحمته التي وسعت كلّ شيء، قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾[الأعراف: ١٥٦]، حتى أن قتل الكافر أثناء المعركة تتجلى فيه الرحمة فهي تخليص له من اكتساب المزيد من الآثام وتخليص لغيره من شره، وطريقة القتل يجب أن تظهر فيها الرحمة، فالقتل بالحرق محرم وتعذيب ابن آدم حرام أيًّا كان، ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾[آل عمران:١٥٩]، وبتراحم المؤمنين فيما بينهم تتوثق الوشائج بينهم، فيحب بعضهم بعضًا وتجتمع كلمتهم.

إن المؤمن رحيم لغيره من الناس وحتى للحيوانات أيضًا. ففي تلك الرحمة أجر كبير. وقد قص علينا رسول الله ﷺ قصة رجل يمشي بطريق فاشتد عليه العطش، فوجد بئرًا فنزل فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفّه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له، قالوا يارسول الله وإن لنا في البهائم أجرًا، فقال: **«نعم، في كل ذات كبد رطبة أجر»** [رواه الشيخان]، وحين رأى عمر بن الخطاب عجوزا يهوديًا يسأل الناس، رحم له كبر سنه قائلا: ما أنصفناك، أخذنا الجزية منك في شبابك وتركناك في كبرك، ثم فرض له ما يكفيه من بيت المال.

٧٥ـ ترك الجدل

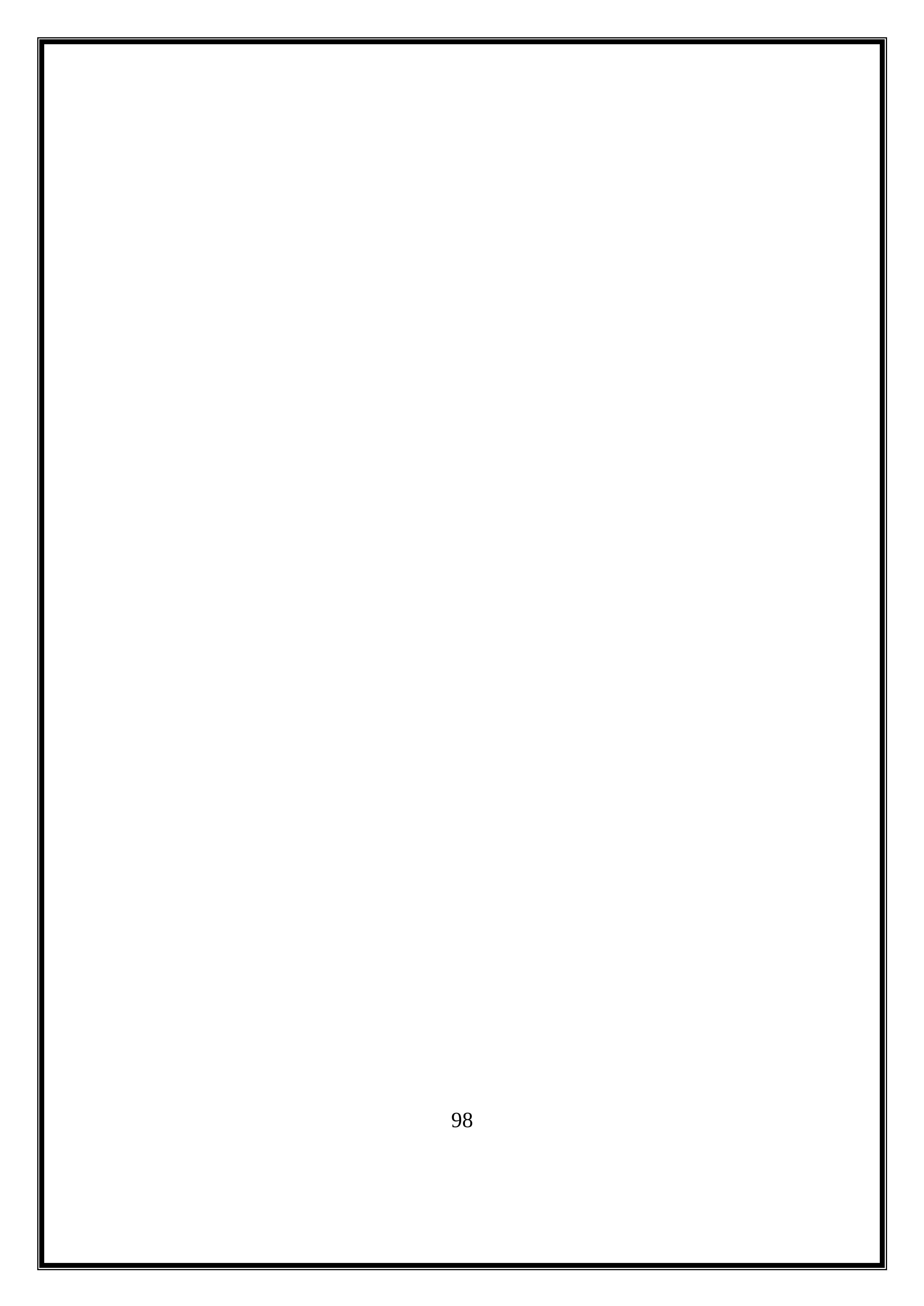
عن أبي أمامة ﷺ عن النبي ﷺ قال:

"ما ضَلّ قوم بَعدَ هُدًى كانوا عليهِ إلاّ أوتوا الجَدالَ»

[رواه الترمذي وأحمد وإبن ماجه والحاكم]

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾[البقرة: ٢٠٤]، فالجدال يتضمن عادة حب ظهور المجادل على خصمه، وتشفّيه بخذلانه أو حسده إن حدث العكس، وبغضه أو عدم قبول الحق الذي قاله عنادًا وتكبرًا. وقد يلجأ المخاصم إلى الكذب أو إخفاء الحق والسب والشتم وتعيير الخصم أو غيبته وكرهه بغير حق. وهكذا فالجدل مثير لكل هذه الآفات النفسية التي لا تليق بالمؤمن. وهناك بعض الناس من جُبِل على حب الجدل، وهذه غريزة مذمومة وعليه مقاومة دوافعها ومعالجتها بكبح جماح النفس ومنعها من الاستمرار بالجدل حتى ولو كان على يقين بأنه على الحق وخصمه على الباطل فقد ورد عن رسول الله ﷺ: **"أنا زعيمٌ ببيت في رَبَض الجَنّة لِمَن تركَ المِراءَ وإن كانَ مُحِقًا، وببيت في وسَطِ**

الجَنَةِ لِمَن تركَ الكَذِبَ وإن كانَ مازِحًا» [رواه الترمذي وإبن ماجة]. والملاحظ أن دوافع الجدال والأخذ والرد تزداد إذا حضر الجدال أو سمعه شخص أو أشخاص آخرون لأنه عند ذلك يكون العجب بالنفس وحب الظهور على أشده. وهكذا يتصيد الشيطان فرائسه في ساعات الغفلة فيغويهم ويقودهم إلى الاختلاف والشقاق بعد أن كانوا على هدى وإجتماع. ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥].. أما المناقشة الهادئة في سبيل نشر الحق والوصول إليه فقد قال الله تعالى فيها: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وعند ذلك تكون تلك المجادلة مطلوبة لأنها وسيلة من وسائل الدعوة شرط خلوها عن نوازع النفس الشريرة وإخلاص النية فيها لله تعالى. والدعوة ليست جدلاً محضًا بل هي فعل وامتثال لأوامر الله تعالى وتطبيق ذلك على النفس أولاً، ثم إيضاح ذلك للناس بالجدال بالتي هي أحسن، والناس يقتنعون بالفعل والقدوة الحسنة ما لا يقتنعون بحسن الكلام وقوة الحجة.



الباب السادس
الاستقامة في المعاملة

٧٦ـ أحب للناس ما تحب لنفسك

عن يزيد بن أسيد[١] ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "**أحبّ للنّاسِ ما تحِبّ لِنفسِكَ**»
[رواه البخاري في التأريخ والطبراني والحاكم والبيهقي]

إذا كان مقياس المرء في تعامله مع غيره أن يحب لهم ما يحب لنفسه، أنمحى الشقاق الذي دوافعه الأنانية وحلت محله المحبة والتعاون والتآلف. هل يريد أن يُطَفَفَ له المكيال؟ فلا يفعل ذلك مع غيره. هل يحب أن يهينه أحد على ملأ من الناس؟ فلا يفعل ذلك مع غيره. هل يحب أن يساعده الناس عند حاجته لهم من مرض أو فقر؟ كذلك يفعل مع غيره. وهكذا تكون أسس الحياة السعيدة له ولغيره. أما من تغلبت عليه أنانيته فهو يرى العالم يعيش في غابة ما يتوفر فيها أقل من حاجة من فيها لذلك فيكون منهجه: قد أفلح من غلب. هذا هو التناقض الواضح في المنهج بين المؤمن الصادق وعبد الدنيا.

والإيثار أعلى درجة من ذلك حين يؤثر المؤمن أخاه على نفسه، قال الله تعالى في مدح الأنصار: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

إن للمؤمن على المؤمن حقوق وعليه أداؤها. فبالإضافة إلى الحقوق التي تبرز عند الحاجة كتشييع الجنائز والصلاة عليها وعيادة المريض وغير ذلك، فإن هناك حقوقًا دائمة كاحترام النفس والعرض والمال. أما الحقوق المخصوصة بناس معينين: فحق العالم الإجلال والاحترام، وحق الجاهل التعليم، وحق الصديق النصح والتسديد، وحق الأمير الطاعة في غير معصية الله، وحق الولد الإعالة والتربية، وحق الزوجين الإحسان بعض لبعض، وحق الكبير على الصغير الإحترام، وحق الصغير على الكبير العطف، وحق الفقير على الغني الصدقة والاقراض... وهكذا .، وهذه كلها يجب أن يقصدها دون مقابل أو توقع لجزاء منهم. وهو يفرح لفرح أخيه ويحزن لحزنه، قال ذو النون المصري: من أعلام الأيمان إغتمام القلب بمصائب المسلمين، وبذل النصح لهم متجرعًا ظنونهم، وإرشادهم إلى مصالحهم وإن جهّلوه وكرهوه.

---

(١) يزيد بن أسد هو جد خالد بن عبد الله القسري، كان من أهل اليمن، خرج في زمن عمر إلى فتح الشام، ووجهه معاوية في٤٠٠٠ رجل من أهل الشام لنصرة عثمان ﷺ فوصل المدينة فوجده قد قتل، فلم يفعل شيئا.

٧٧ـ الحب في الله

عن أبي هريرة ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ :

"يَقولُ الله تعالى يومَ القِيامةِ: أينَ المُتحابّونَ بجلالي... اليومَ أظلُّهُم في ظلّي يومَ لا ظِلّ إلاّ ظلّي» [رواه مسلم وأحمد]

وصف الله تعالى المؤمنين بعضهم نحو بعض: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، ووصف أحوالهم قبل الأيمان وبعده: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[آل عمران: ١٠٣]، ومقياس هذه الأخوة هو المحبة بين أعضاء الجسد الواحد فذلك دليل قوة الأمة وتمسكها بما فرض الله عليها. قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أحب لله وأبغض لله وعادِ في الله ووالِ في الله فإنه لن تنال ولاية الله إلاّ بذلك ولا يجد رجل طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصيامه حتى يكون كذلك.

إذا أحببت امرؤا ما في الله فأخبره أنك تحبه، ذلك ما أخبرنا به رسول الله ﷺ حين قال **"إذا أحبّ الرجل أخاهُ فليخبره أنه يحبه»** [رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح]. وإذا أخبرك شخص أنه يحبك في الله فيستحب أن تجيبه: أحبك الذي أحببتنا من أجله. وادع لمن تحب من إخوانك المؤمنين بظهر الغيب، فدعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجاب فالملائكة تجيب الداعي: ولك مثل ذلك، كما قال ﷺ: **"إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب، قال المَلَكُ ولك مثل ذلك»** [رواه مسلم]. وإفشاء السلام على من عرفت ومن لم تعرف وسيلة لزيادة تحابب المسلمين بعضهم مع بعض حيث قال عليه الصلاة والسلام: **"لا تؤمِنوا حتى تحابّوا، ألا أدلُّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم... أفشوا السلامَ بينكم»** [رواه مسلم]. إن مجالسة من تحب من الصالحين، إن كان مجلس نصيحة وتواص بالحق فهو مجلس عبادة، وزيارة الأخ لأخيه دون أن يكون بينهما مصلحة دنيوية عبادة، فالمؤمن مرآة أخيه يرى فيها نفسه لأن المؤمنين بعضهم لبعض نَصَحَة والمنافقين بعضهم لبعض غششة كما ورد في قوله ﷺ: **"المؤمنون بعضُهُم لبعض نُصَحة وادّون وإن بعدت منازلهم وأبدانهم، والفجرة بعضهم لبعض غشَشَة متخاذلون وإن قربت منازلهم»** [رواه أبو الشيخ بن حبان]. وهذا ما سيتأكد في الحديث اللاحق.

رأى أحد العارفين رسول الله ﷺ في المنام فقال له لم تبغض فلانًا (عن رجل معين) فقال لأنه يبغض أحد الرجال الصالحين، وسماه له، فقال رسول الله ﷺ: ألا تعلم أنه يحب الله ورسوله؟ قال نعم، قال أتبغضه لأنه يبغض فلانا ولا تحبه لأنه يحب الله ورسوله؟ فلما أخبر الرجل بعد يقظته ندم على ما كان من بغضه للرجل

الصالح. فالمؤمن يحب المؤمنين وينظر إلى محاسنهم ويتغاضى عن مساوئهم ويعطي لحبهم لله ولرسول الله ﷺ وزنًا كبيرًا، فإنه ما من مسلم إلاّ وفيه خلق يحبه غيره وخلق يكرهونه، فعلى المؤمن أن ينظر لما يحب من أخلاق إخوانه ويتغاضى عما يكره منهم.

٧٨ـ النصيحة

عن تميم الداري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "الدّينُ النَصيحةُ " قيل لمن يا رسول الله قال: " **للّهِ ولِرَسولِهِ ولأئمةِ المُسلمين ولعامَتِهِم».** [رواه مسلم]

قال الله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥]، قال عمر بن الخطاب: لا خير في قوم ليسوا بناصحين ولا خير في قوم لا يحبون الناصحين. وقال الحارث المحاسبي: إعلم أن من نصحك فقد أحبك ومن داهنك فقد غشك ومن لم يقبل نصيحتك فليس بأخ لك. ومن تصدى لنصح أحد فليكن أولاً قد إتصف هو بالخلق الذي ينصح الناس به وليكن نصحه برفق وتلطف دون تشهير. قال الإمام الشافعي ﷺ: إذا نصحت فانصح سرًا لا جهرًا، فإذا نصحت أخاك سرًا فقد نصحته وزِنته (من الزين)، وإن نصحته أمام ملأ فقد نصحته وشنته (من الشين).

وقد يكون النصح بالتعريض والتلميح أبلغ أحيانا من التصريح، خاصة لمن يفوقك في السلطان أو يكبرك بالسن. مر الحسن والحسين رضي الله عنهمًا وهما صغيران بشيخ لا يحسن الوضوء، فأرادا أن يعلماه الوضوء فتقدم منه أحدهما وقال: إختصمنا أنا وأخي هذا في أينا أحسن وضوءًا ونريد أن تكون بيننا حكمًا، فلما توضآ أمامه عرف خطأه فشكر لهما صنيعهما. وإذا عرفت من شخص عنادًا بأن يفعل عكس ما تنصحه به فعليك أن ترفق به وتنصحه بعكس ما تراه لكي يصيب الحق في مخالفته لك. وذلك هو أحد الأسس التي عرفت حديثًا في تعليم الكبار. فالغاية من النصح تقويم الاعوجاج وليس العجب بالنفس والتباهي بأنك أفضل ممن تنصحه أو أعلم منه.

والنصح لله هو أن تأمر بما يأمر الله وتنفذ أوامره في خاصة نفسك، والنصح لرسوله أن تبلغ ما أمر به أمته مما أوتيت من علم وتكون أمينًا في الدفاع عن سنته. والنصح لأئمة المسلمين بإرشادهم لما فيه خير الناس ومساعدتهم في تنفيذ ذلك والدعاء لهم. قال عبد الله بن المبارك لو علمت أن لي دعوة مستجابة واحدة لجعلتها لأئمة المسلمين لأن بصلاحهم يصلح ناس كثير وبفسادهم يهلك ناس كثير.أما النصح لعامة المسلمين فيجب البدء بالأقرب فالأقرب. وقد وصف الله تعالى الإنسان بالخسران إلا الذين يتواصون بالحق وبالصبر: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ٢-٣].

79ـ إدخال السرور على المسلمين

عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :

«مَن لَقيَ أخاهُ المُسلِمَ بما يُحِبّ لِيَسُرَّهُ بذلك، سَرّهُ اللّهُ عزّ وجَلّ يومَ القِيامةِ».

[رواه الطبراني بإسناد حسن وأبو الشيخ]

الأساس القويم لبناء المجتمع المتماسك هو المحبة بين أفراد ذلك المجتمع وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، فالمسلم يحب السرور لنفسه لذلك فهو يحب السرور لأخيه، ويحب أن يكون هو المتسبب في إدخال السرور على نفس أخيه، والله تعالى يجازي على ذلك بسرور أعظم يوم القيامة.

إن إدخال السرور على نفس المسلم يمكن أن يتم بقضاء حوائجه، أو بالرفق في مخاطبته أو بتخفيف آلامه ومصائبه عند شدائده أو بتعليمه ما ينفعه أو ما ينفع من يحبه كولده أو قريبه.فالسعي في قضاء حوائج المسلمين عبادة.

80ـ العدل

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ :

"إنّ المُقسِطينَ عنـد اللّـهِ على مَنابر مِن نـور، الّذينَ يَعدِلونَ في حُكمِهِم وأهليهم وماوُلّوا»

[رواه مسلم]

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ﴾ [المائدة: ٨]، أي لا يحملكم بغضكم لقوم على أن تظلموهم فإن العدل أحق أن يتبع حتى مع الأعداء. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾[النحل: ٨]. وقد نادى الله عبده داود عليه السلام: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[ص:٩٠].

في هذا الحديث تبيان أن العدل لا يكون في الحكم فقط، بل العدل في كل من ولي شيئًا. فالوالد عليه العدل بين أولاده، ومن تزوج بأكثر من إمرأة عليه العدل بينهن، ومن حمل مسؤولية عليه العدل بين من يشملهم عمله من رئاسة أو مراجعة أو تكليف بواجبات إلى غير ذلك. كما أن عليه أن يعدل بين حق نفسه وحق غيره فلا يؤثر نفسه على غيره دون حق ولا يتبع الهوى فيفضل أقرباءَه على غيرهم أو يغمط

حق من يكرهه. أتى رجل إلى عمر بن الخطاب فقال له: إني أبغضك، فقال له عمر أتغمطني حقي؟ قال لا، قال فإنما يبكي على الحب النساء.

إن الله تعالى إذا أوجب أمرًا جعل متطلبات ذلك الواجب واجبة أيضًا. فالمعروف أن الغضب يفقد المرء بعضًا من صواب قراره. لذلك نهى رسول الله ﷺ عن الحكم عند الغضب فقال: **«لا يقضي القاضي وهو غضبان»** [متفق عليه]. ومن عمل تحت أمرته أجير فعليه أن يعدل معه ولا يظلمه، فلا يكرهه على عمل لم يتفق عليه عند التعاقد مستفيدًا من كونه لم يصرف اجرته بعد، أو أن بإستطاعته حجبها عنه أو تقليلها، فكل ذلك من الظلم سواء كان لمصلحته هو أو لمن أمره بذلك، فمن ساعد ظالمًا على ظلمه كان شريكًا له، ومن كان في كده ظالمًا لغيره كان ما أكل من مال حرام وسحت.

٨١ـ صلة الرحم

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ :

"الرَحِمُ مُعَلَّقَة بالعَرشِ تقولُ مَن وَصَلَني وَصَلَهُ اللّهُ وَمَن قطَعَني قطَعَهُ اللّهُ»

[متفق عليه]

إن الله تعالى خلق الناس من أبوين وجعل كل أسرة تتصل بقرابة مع غيرها، فصلة الرحم تعني إقامة علاقات التعاون والتآلف مع الأقربين وتقديم ما يحتاجون من مساعدة إليهم. ويتم ذلك بالتزاور والتناصح والرعاية عند الملمات ومنح الصدقات لفقرائهم، كل هذا مع عدم توقع مقابلة ذلك بإحسان مقابل ذلك بل ابتغاء وجه الله حتى وإن كان ذلك المقابل مقصرًا في صلة رحمه. فعن أبي هريرة ﷺ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني وأحسن إليهم ويسيئون إليّ وأحلم عنهم ويجهلون عليّ، فقال: **"لئِن كُنتَ كَما قُلتَ فكأنَّما تسِفُّهُم الملّ ولا يزال معَكَ مِنَ اللّهِ ظَهير عليهم ما دُمتَ على ذلك»** [رواه مسلم]، تسفهم المل أي كأنما تطعمهم الرماد الحار أي يلحق بهم إثم كبير. ويجب على المؤمن أن يراعي ذوي رحمه الأقرب فالأقرب، قال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]، قد حث الله تعالى على تفقد ذوي القربى في كثير من الآيات ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾ [البلد: ١٤- ١٥]، ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٦]، فالصدقة إذا أعطيت إلى ذي قربى يكون لها أجر الصدقة وأجر صلة الرحم. وهكذا فالمؤمن يتغاضى عن هفوات أقربائه تجاهه وإساءتهم إليه وظلمهم له ويحسن إليهم متفقدًا إياهم في السراء والضراء مادّا يد المساعدة إليهم كلما احتاجوا إليه.

٨٢ـ الإحسان إلى الجار

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :

"مَن كانَ يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فليُحسِن إلى جارِهِ، ومَن كانَ يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فليُكرم ضيفهُ، ومَن كانَ يؤمن بالله واليوم الآخر فليَقُل خيرًا أو ليَصمت»

[متفق عليه]

الإحسان إلى الجار سواء كان مسلمًا أو غير مسلم وسواء كان يمت بقرابة أو لا يمت بقرابة حث عليه القرآن: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ [النساء: ٣٦]، وهذه الوصية تقع ضمن منهج تكوين المجتمع الصالح المتعاون والذي تبنى فيه العلاقات على أسس متينة من تعاون وتكافل وإحترام، حتى إن إختلف الدين وانعدمت رابطة النسب أو القرابة. وليس الجار بالمسكن فقط، بل هناك الجار في العمل، والصاحب في السفر هو جار مؤقت، وجار في مصلحة مشتركة (يدخلون تحت الصاحب بالجنب)، فحقوق هؤلاء النصح والمصاحبة بالمعروف وعدم الأذى وتحمل أذاهم وطيب الكلام معهم.

يحتاج الجيران بعضهم بعضًا، فعلى المرء أن يقدم المساعدة لجاره ولا يؤذيه ولا يعتدي عليه في بناء أو مضايقة أو منّ على معروف. وعلى المؤمن أن يحب لجاره ما يحب لنفسه ويتلطف به إن كان سيئ الخلق أو فاسقًا. وفي القصة المشهورة عن أبي حنيفة ﷺ مع جاره الذي كان يعاقر الخمر وينشد الشعر عند ثمله، حيث كان افتقاده له عندما سجن سببًا في توبته وصلاحه فيما بعد.

وإكرام الضيف هو الآخر مما يثبت علاقة الود والمودة ويدفع عن النفس النظرة المادية التي يسببها الشح والبخل. وقد أردف رسول الله ﷺ بالحديث أخيرًا التوقف عن فضول الكلام وسيئه فعلى المؤمن أن يقول الخير أو ليصمت فذلك خير من النطق بالفحش أو الكذب أو رياء القول أو المدح الكاذب أو ما شابه ذلك. وقد مرت آفات اللسان في الحديثين ٦٦ و ٦٧.

٨٣ـ الرفق في كل شيئ

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ :

"إنّ اللهَ رَفيق يُحبّ الرفقَ ويُعطي على الرفق ما لا يُعطي عَلى العُنف وما لا يُعطي على سواهُ» [رواه مسلم]

إن الترفق بالناس من حسن الخلق وهو مما حث عليه رسول الله ﷺ، فما كان الرفق في شيء إلاّ زانه وما كان العنف في شيء إلاّ شانه فقد قال: «**إن الرفقَ لا**

يكونُ في شيء إلاّ زانه، ولا ينـزع من شيء إلاّ شانه» [رواه مسلم] وكان رسول الله ﷺ سهلاً إذا باع سهلاً إذا اشترى وكان يقول: "**رَحم الله رجلاً سمحًا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى»** [رواه البخاري]. ولماذا يسلك الإنسان العنف إذا كان باب الرفق مفتوحًا إلاّ إذا كان المرء معجبًا بنفسه مزدريًا لغيره وهذا ما لا يحبه الله، أو إذا كان يظن أن من يقابله لا ينفع معه الرفق. ولكن هذا أيضًا لا يجوز إلاّ عن تجربة أو بينة. أما إذا اتُّخِذ العنف منهجًا فهذا ما ينهى عنه رسول الله ﷺ في هذا الحديث.

والرفق يكون في كل شيء. فالمشي على الأرض هونًا دون عجب أو تكبر هو رفق، وإطعام الحيوان رفق، ومعاملة الناس يجب أن تكون برفق، والدعوة في سبيل الله تكون برفق، فربّ عدو لدود ورث العداوة عن غيره يقلبه الرفق صديقًا حميمًا.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾[فصلت: ٣٤].

من الرفق بالناس أن تؤدي حق المحتاج من ذوي القربى أو الجيران أو من تعرف حاجته قبل أن يسألك. ومن الرفق عدم الإلحاح مع الناس في كل شيء كعدم المماطلة في قَضاء الدين أو البيع والشراء عمومًا إلاّ إذا كان المرء فقيرًا، فإن مطل الغني ظلم. قال عليه الصلاة والسلام: "**مَطل الغني ظلم، وإذا أُتبع أحدكم على مليئ فليتبع»** [متفق عليه]، ومن الرفق قضاء الدين قبل أن يسأل عنه صاحبه.

٨٤ـ الرفق بالنساء

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :

"أكملُ المُؤمنينَ إيمانًا أحسَنُهم خلقًا، وخيارُكُم خيارُكُم لنسائهم»

[رواه الترمذي وقال حسن صحيح]

الوصية بالنساء وصية خاصة أدّاها رسول الله ﷺ وأكد عليها في وصيته لأمته قبل وفاته. وكان يؤكد على ذلك باستمرار وينهى عن سوء المعاملة والعنف وذلك لبناء البيت الصالح. وإذا ما كره المرء من زوجته أو كرهت المرأة من زوجها خلُقًا، وجد معها أو وجدت معه خلقًا محبوبًا غيره. والصبر على سوء خلق أحد الزوجين من الأمور التي تقرب عند الله تعالى. وقد حث الله تعالى على التغاضي عن زلات الأزواج فقال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩]. وعلى فرض سوء الزوجة وعدم إمكان الإصلاح فإن الله يدعو المؤمنين إلى الحذر منهن، لكنه يدعو إلى العفو أيضا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].والمعاملة بين أفراد الأسرة يجب أن تبنى على التعاون وحسن الخلق واحتمال زلات بعضهم بعضًا، ويقود ذلك التعاون رب الأسرة. لذا فإن أول واجبات رب الأسرة هو الإحسان إلى زوجته وعن طريق ذلك يسري الإحسان إلى بقية أفراد الأسرة ومن ثم يرتبط أفرادها بالمحبة والإيثار والتعاون. ويجب أن لا يكون ذلك على حساب دين المرء وواجباته الأخرى نحو والديه أو ذوي قرباه، فإن رسول الله ﷺ حذّر من عقوق المرء والديه طاعة لزوجته. قال ﷺ: **«من علامات الساعة" منها "أطاع الرجل زوجَهُ وعَقّ أمّهُ»** [رواه الترمذي] - حيث تطلق لفظة الزوج على الرجل وعلى المرأة- فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق (راجع الحديث ١٨).

85ـ إجتناب الغش

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :

"مَن حَمَلَ علينا السلاحَ فليسَ منا ومَن غَشّنا فليسَ منا» [رواه مسلم]

الغش في المعاملات يمكن أن تحد منه القوانين، ولكن كلما زادت القوانين شدة إبتكر الغشاشون نوعًا جديدًا من الغش. أما إذا حورب الغش من داخل نفس الإنسان، فكان لا يحب لغيره إلاّ ما يحب لنفسه فإن الغش يقضى عليه أو قل كثيرًا. من الغش

إخفاء العيوب، ومن الغش نقص المكيال، ومن الغش الحلف الكاذب، ومن الغش إظهار الورع والتقوى أمام المشتري، ومن الغش وصف السلعة بما ليس فيها، ومن الغش الوعد الكاذب مع اليقين بعدم التمكن من الوفاء. وشر الغشاشين الذين يغشون الناس ولا ينتفعون هم بل ينتفع غيرهم بذلك وما هم سوى أدوات لتنفيذ الغش، وليس لهم من نفع سوى فائدة تافهة كرضاء أوليائهم عنهم أو مدحهم لهم وتشجيعهم على سوء عملهم لقاء ثمن بخس من متاع الدنيا الزائل، وهذا عمل لا يرضاه الله تعالى.

إن رب الأسرة الذي يهمل توجيه أسرته وتعليمها غاشّ لهم، والذي يكسب الرزق الحرام ويطعم أولاده من ذلك الرزق الحرام غاشّ لهم. وكانت نساء المؤمنين الأولين يوصين أزواجهن بالرزق الحلال ويقلن لهم: إتقوا الله فينا فإننا نصبر على الجوع ولا نصبر على حر جهنم. ومن ولي من أمر المسلمين شيئًا فلم يبذل جهده معهم أو استأثر بالمنافع لنفسه وذويه دونهم فهو غاش لهم، والرعية إذا لم تنصح لمن ولآّه الله أمرها غاشّة له.

أما حمل السلاح ضد المسلمين الذي ورد في هذا الحديث دون تأويل سائغ فهو كفر. والتأويل السائغ هو أن يكون هناك حجة شرعية يقبلها العقل استنادًا إلى كتاب الله أو أحاديث رسول الله ﷺ بتأويل تقبله اللغة العربية، كالدفاع عن النفس والمال والدين والعرض والوطن.

٨٦ـ مداراة الناس

عن عائشة رضي الله عنها قالت، إستأذن رجل النبي ﷺ فقال: "**إئذنوا لهُ بِئسَ أخو العَشيرَة هُوَ»**، فلما دخل ألان له القول، قالت عائشة: فقلت يا رسول الله قلت عنه الذي قلت ثم ألنت له القول!! قال: "**يا عائشة، إنّ شَرَ الناس مَنزلة عند الله يوم القيامَة من ودَعَهُ أو ترَكَهُ الناسُ اتقاء فُحشه»** [متفق عليه]

لين الكلام وخفض الجناح للمؤمنين من الإيمان. أما الفسقة والأشرار فيجب التلطف بهم ومداراتهم ابتغاء تأليف قلوبهم وتزيين الإيمان لهم أو تجنب أذاهم. وقد نهى الله تعالى عن سب آلهة الكفار ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. فمن الدين مداراة السفهاء، والتلطف بهم دون خنوع وبما لا يزيد من غرورهم وصلافتهم تجاه الحق. وهذا لا يقلبهم إلى أخيار فإن شر الناس من أكرم إتقاء شره. والله تعالى يحب الرفق في الأمر كله. أما إظهار العزة على الكفار، ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. فهو مطلوب في حال المجابهة والخصام مع جموع الكافرين أو ممثليهم أو المعاندين منهم الذين لا يظهرون أي لين تجاه الحق.

قال محمد بن الحنفية[١] ﷺ: ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدًّا حتى يجعل الله له منه فرجًا. وقد أخرج الطبراني من حديث علي بن الحسين[٢] عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: "**رأسُ العَقل بَعدَ الإيمان التوَدُدَ إلى الناس واصطناع المعروف إلى كُلّ برّ وفاجر»** [البيهقي في شعب الإيمان وأبو نعيم في حلية الأولياء]

ويبيح هذا الحديث غيبة المجاهر بفسوقه، ولذلك أحوال محدودة منها تحذير المسلمين من شره والاستعانة بهم لتغيير منكره أو شكايته إلى قاض أو نحوه أو تسميته بما عرف عنه من منكر. أما فيما عدا ذلك فالغيبة محرمة ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُ﴾[الحجرات: ١٢]. وهكذا يجب على المسلم أن يستعمل هذه الرخص في حدودها فلا يتعداها، كما أن عليه أن يجنب

---

(١) محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وأمه خولة بنت جعفر من بني حنيفة، كان صاحب راية أبيه يوم الجمل وكان شجاعًا فصيحًا كريمًا، توفي سنة ٨١هـ بالمدينة.

(٢) علي زين العابدين الإبن الأصغر للإمام الحسين رضي الله عنهما، كان عابدًا زاهدًا جوادًا. وكان إذا توضأ اصفر لونه، فإذا سئل عن ذلك قال أتدرون بين يدي من أريد أن أقف؟ وكان لا يترك قيام الليل لا سفرًا ولا حضرًا. كان محبوبًا مهابًا، وحادثة المسجد الحرام مع هشام بن عبد الملك مشهورة حيث قال فيه الفرزدق:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

في قصيدته المشهورة. توفي بالمدينة ودفن في البقيع عام ٩٩هـ وهو ابن ٥٨ سنة.

نفسه الوقوع في مواضع التهم بحيث يغتابه الناس أو يظنوا به سوءًا ورحم الله من جَبّ الغيبة عن نفسه.

٨٧ـ قضاء حوائج المسلمين

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«المُسلمُ أخو المُسلمِ لا يَظلمهُ ولا يُسلمهُ، مَن كانَ في حاجَة أخيه كانَ اللّهُ في حاجَته، ومَن فرَّجَ عن مُسلم كُربَة فرَّجَ اللّهُ عنهُ بها كُربَة من كُرَب يوم القيامَة ومَن سَترَ مُسلمًا سَترهُ اللّهُ يومَ القيامة». [متفق عليه]

المسلم يعامِل أخاه كما يحب أن يعامَل هو وخاصة في أوقات الضيق. فهو يساعد أخاه إن احتاج، وينصره إن استنصره، ويدافع عنه في غيابه، ولا يسلمه إلى من يظلمه، ولا يفشي سره، ولا يتآمر عليه في جد ولا هزل. وإذا وجده في كربة نفَّسَ عنه بالكلمة الطيبة أو بقضاء حاجته أو بنصحه وإرشاده إلى من يستطيع مساعدته. ومشي المسلم في حاجة أخيه دون توقع نفع دنيوي منه، من أقرب القربات إلى الله، وليس بالقليل أن يقال: أن الله تعالى في حاجة فلان ما دام يقضي حاجة أخيه، ومن حقوق المسلم على المسلم أخذ أقواله على أفضل وجه وعدم اتهامه إلاّ ببينة واضحة. ومن حق المسلم على المسلم أن يستره إذا وجده مرتكبًا لإثم أو ذنب أو فعل يستقبحه الناس، فمن ستر مسلمًا ستره الله تعالى كما قال ﷺ: **"لا يستر عبد عبدًا في الدنيا إلاّ ستره الله يوم القيامة»** [رواه مسلم].

حقوق المسلمين بعضهم نحو بعض كثيرة، بعضها عام لكل الأحايين، وبعضها محدود في حالات خاصة. والمؤمن إذا جبل نفسه على عمل الخير في كل وقت، وجعل ذلك شغله الشاغل عملاً بقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ [البقرة: ١٤٨و المائدة:٤٨]، فإنه يحاول جهده لخدمة غيره دون توقع ثواب أو مكافأة. ومن اعتاد ذلك قيّض الله له من يساعده في وقت الضيق. وقد ورد عن رسول الله ﷺ: **"ما أكرَم شاب شيخًا لسنه، إلاّ قيَّض اللّهُ له من يُكرمُهُ عندَ سنه»** [رواه الترمذي]، كما قال: **"برّوا آباءكُم تبرُّكم أبناءكُم، وعِفّوا تعفّ نساؤكُم»** [رواه الطبراني في الأوسط]. فإن من يؤدي حقوق غيره من المسلمين يقيض الله له من يؤدي حقه عند حاجته لذلك. وهذا المستوى من الفهم قد أدركه بعض عقلاء الغربيين اليوم في مساعدة بعضهم البعض والتعاون فيما بينهم، حتى أنهم ودون الرجوع إلى أمر أو نهي من دين أو شرع أدركوا أن فعل الخير للناس يدخل الطمأنينة إلى نفس فاعل ذلك الخير ويذهب عنه القلق، هذا في الوقت الذي تماهل كثير من المسلمين في التخلق بهذه الأخلاق، فشاع التدابر وقطع الأرحام والأنانية، فلا عجب أن أوكلهم الله تعالى إلى أنفسهم ورفع

عنهم رعايته باللطف والرحمة جزاء سوء أعمالهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد:١١].

٨٨ـ طاعة المرأة لزوجها

عن معاذ بن جبل ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : **"لو كُنتُ آمرًا أحدًا أن يَسجُدَ لأحَد، لأمَرتُ المرأةَ أن تسجُدَ لزوجها»** [رواه أحمد والترمذي والحاكم]

في الوقت الذي أوصى الله تعالى الرجل بالإحسان إلى من يرعاهم من زوجة وأولاد وأم وأب خاصة إن كانا عاجزين، فإن الوصية للمرأة بالطاعة تكون مكملة لتجانس الأسرة واكتمال تماسكها وتآلفها. فقد أعطى الله الرجل القوامة، ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[النساء: ٣٤]، لكنه لم يعطه الحق في الاعتداء والظلم والتعسف. إن طاعة المرأة لزوجها أحد أركان تأسيس أسرة قوية متماسكة. ويأتي هذا الأمر ضمن أوامر مشابهة للولد بإطاعة أبيه، وللرعية بإطاعة أميرها، وفي الوقت نفسه أمر الراعي بالإحسان إلى رعيته، وحرم الظلم والغش. وقد سبق في الحديثين ٥١ و ٥٢ ذكر ذلك.

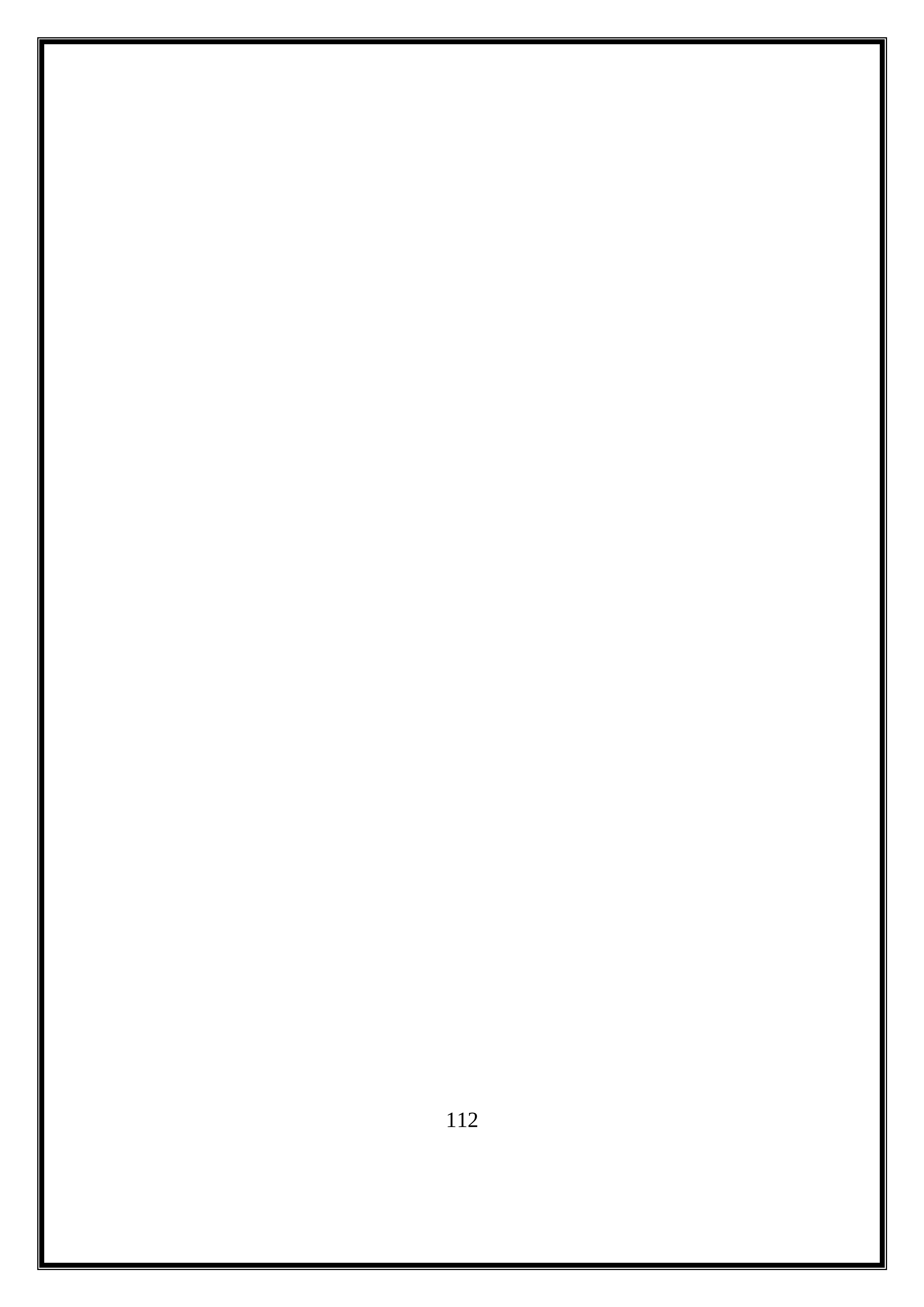
إن رعاية المرأة لزوجها وأولادها قد أسقط عنها فرائض كثيرة كالجهاد أو حضور الجمعة والجماعات. فالمرأة الصالحة تحفظ زوجها في بيتها ونفسها وولدها، وإذا نظر إليها زوجها سرته وإذا أمرها أطاعته ولا تخرج من بيتها ولا تصوم تطوعًا إلا بإذنه وهي قد نذرت نفسها لصلاح بيتها وعند ذلك تنال فضل المجاهدين في سبيل الله وهي ماكثة في بيته، أما إذا كانت المرأة ذات زوج فاسق، فعليها مصاحبته بالمعروف وأداء حقوق الله أولاً ثم حقوقه ثانيًا، وعدم مشاركته في فسوقه، والإنكار عليه ولو بالقلب، والدعاء له بالصلاح، والترفق به حتى يجعل الله لها مخرجًا. وإن كان مهملاً لولدها فعليها أن تكون لولدها أما وأبًا، ولتكن لها أسوة حسنة في امرأة فرعون: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١]

٨٩ـ الأمانة

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

"أربَع مَن كُنّ فيه كانَ مُنافقًا خالصًا، ومَن كانَت فيه خَصلَة منهُنّ كانَت فيه خصلَة من النفاق حتى يَدَعَها: إذا أؤتمنَ خانَ، وإذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا عاهَدَ غَدَرَ، وإذا خاصَمَ فَجَرَ» [متفق عليه]

الأسس القويمة لحسن المعاملة بين الناس (مسلمين وغير مسلمين) هي الصدق والأمانة والمحافظة على الوعد. فالأمانة أوصى بها تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[النساء: ٥٨]، وأوصى بالصدق ولعن الكاذبين، وأمر بالوفاء بالعهد وبالعقود: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾[الإسراء: ٣٤].وبالعقود: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾[المائدة: ١]. وقد مقت الله تعالى الخيانة حتى مع الكفار فقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا﴾[النساء: ١٠٧]. الخيانة صفة لا يمكن أن يتصف بها مؤمن كما سبق في الحديث (٦٤)، لذلك فالمعاملة بين المسلمين تستند إلى الأمانة والصدق والإيفاء بالعهود والمواثيق والعقود. ولقد بلغ من وفاء المسلمين بعهودهم ومواثيقهم مع غيرهم مبلغًا على مر القرون السالفة لم تبلغه أمة من الأمم، وذلك بفضل ما أمرهم به كتاب ربهم وما اخْتَطَّهُ لهم رسول الله ﷺ في حياته. فقد وفى رسول الله ﷺ بعهده مع الكفار في صلح الحديبية حتى أخلفوا هم الميثاق.وفي حياته كان مثالاً للإيفاء بالوعد، وكان يأمر أصحابه بذلك. إحتجز الكفار قبيل معركة بدر حذيفة بن اليمّان ﷺ وصاحبًا له، ولم يتروكوهما حتى وعداهم بأن لا يشاركا في المعركة التي توشك أن تقع. فلما استشارا رسول الله ﷺ في ذلك أمرهما بالإيفاء بذلك، فلم يشهدا معركة بدر. وقد ترك رسول الله ﷺ يوم هجرته عليًا بن أبي طالب ﷺ بعده ليرد الآمانات إلى أهلها والتي لم تكن سوى أمانات المشركين الذين عادوه وأخرجوه من بلده.



الباب السابع
الاستقامة في تـزكية النفوس

٩٠ـ إتقاء الشبهات

عن النعمان بن بشير[١] رضـي الله عنهما قـال: سـمعت رسـول الله ﷺ يقـول: **«إنّ الحَلالَ بيِّنٌ وإنّ الحرامَ بيِّنٌ، وبينَهُما أمورٌ مُشتبهاتٌ لا يعلَمُهُنّ كَـثيرٌ مِـنَ النّـاس، فَمَـن اتقى الشّبُهاتِ استبرأ لِدينِهِ وَعِرضِهِ ومَن وقعَ في الشّبُهاتِ وَقَعَ في الحَرامِ، كالراعي حولَ الحِمى يوشِكُ أن يَرتعَ فيهِ، ألا وإنّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمى ألا وإنّ حِمى اللّهِ محارِمُه، ألا وإنّ في الجَسَدِ مُضغَة إذا صلُحَت صَلُحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذا فسُدَت فسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ ألا وهي القَلبُ»** [متفق عليه]

مـا أحـل الله بـيّن، ومـا حرمـه كذلك. لكـن بـين الحـلال والحـرام أمـور لا يعلمهـا معظم النـاس. ولا يمكن أن يعلمها كل الناس، ومن الصعب عليهم أن يجدوا إتفاقًـا فـي الإجابة عليها، فما العمل؟ لقد أجاب رسول الله على ذلك بأن ترك ما مشكوك فيه هو من صفات الأتقياء الذين يريدون أن لا يقعوا فيما حرم الله تعالى حتى عن غير قصد. ولا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة مما به البأس. وكـان عمـر بن الخطـاب ﷺ يقول: كُنا على زمن رسـول الله ﷺ نـدَعُ تسـعة أعشـار الحـلال مخافـة الوقوع في الحرام. وكان أنس بن مالك ﷺ يقول: إنّكم لتعملـون أعمـالاً هـي أدق فـي أعينكم من الشعر، كنا نعدها على عهد رسول الله من الموبقات [رواه البخاري]

لقد بلغ من ورع سلف هذه الأمة مخافة الوقوع في الحرام الكثير. فقد رجع عبـد الله بن المبارك من مرو إلى الشام لكي يعيد قلمًا إستعاره من صـاحبه. ورهـن الإمـام أحمد بن حنبل سطلاً عند بقـال بمكـة فلمـا أراد فكاكـه أخـرج البقـال سطلين وقـال خـذ أيهما لك فقال، أحمد أشكل عليّ سطلي فهو لك والدراهم لك، فقـال البقـال سطلك هذا وإنمـا أردت أن أجربـك، فقـال لا آخـذه ومضـى وتـرك السـطل عنـده. واشـترى إبـن سـيرين [٢] أربعين حبًـا مـن السـمن فـأخرج غلامـه فـأرة مـن حب فسـأله مـن أي حب أخرجتها فقال لا أدري فصبها كلها. إن ترك الشبهات يحتاج الى صبر وجلد وهو من صفات المتقين.

---

(١) النعمان بن بشير بن سعد الخزرجي، هو وأبـوه صـحابيان، كـان أول مولـود مـن الأنصـار بعد الهجرة، ولي قضاء دمشـق واستعمله معاويـة علـى الكوفـة ثـم أميـرًا علـى حمـص، كـان خطيبًـا مفوهًا، وبعد تنازل معاوية بن يزيد عن الخلافة بويع بالخلافة، فحاربه مروان بن الحكم، وقتـل سنة ٦٥هـ.

(٢) محمـد بـن سـيرين العـالم الجليـل المشـهور بتفسـير الأحـلام تـوفي سـنة ٢١٠هــ وهـو ابـن نيـف وثمانين.

٩١- إجتناب الرياء

عن أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ:

«**يقولُ اللّهُ تعالى: مَن عَملَ لي عَمَلاً أشرَكَ فيه غيري فهُو لهُ كُلُّهُ وأنا منهُ بَريء وأنا أغنى الأغنياء عَن الشرك».** [رواه مسلم ومالك وابن ماجه]

الرياء هو الشرك الأصغر. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤-٦]. لذلك على المرء أن يخفي من صالح عمله ما استطاع خاصة النوافل والصدقة فوق المفروضة، فمن أخفى ذلك كان من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلاّ ظله: "**سبعة يظلّهم اللّه في ظلّه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه: الإمامُ العادل، وشاب نشأ في عبادة ربّه، ورجل قلبهُ معلّق في المساجد، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته إمرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله مم تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»** [متفق عليه]. ولذلك كانت صلاة الفريضة في المسجد أفضل وصلاة النافلة في البيت أفضل لما فيها من إخفاء للعبادة وبعد عن الرياء. فقد قال الإمام علي ﷺ: المرائي يكسل إذا كان وحده وينشط إذا كان في الناس. ورأى عمر ﷺ رجلاً يُطأطِئ رقبته فقال يا صاحب الرقبة إرفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلوب. ويكون الرياء أحيانًا بإظهار العبادة والعمل الصالح أو بالتزيّي بزيّ الصالحين أو بترداد أقوال يفهم منها صلاح صاحبها وتقواه أو المراآة بالأصحاب والزائرين إن كانوا من أصحاب الخير والصلاح.

والرياء درجات بعضها دون بعض. فإن كان المرائي ليس مراده الثواب أصلاً فهذا ما لا يقبل الله من عمله شيئًا. ويليه من يكون له قصد الثواب ولكن قصده ضعيف ولو كان لوحده لما وجد دافعًا للقيام بالعمل. وهناك من يتساوى عنده قصد الثواب وقصد الرياء. أما أخف ذلك فهو أن يقصد وجه الله تعالى لكن يجد نفسه أنشط إن إطلع عليه الناس. فعلى المرء ان يراقب نيته ويخلص عمله فإن الله مطّلع على ما تخفي الصدور وهو ناقد بصير. وعلاج ذلك إخفاء العمل الصالح ما إستطاع فإن ظهر حمد الله ودعاه أن لا يدخل في عمله شيئًا من الرياء، فالله تعالى غير محتاج لعمل بني آدم، لذلك فإن عملوا عملاً إبتغاء وجه غيره، فلا يقبل الله من ذلك شيئًا. وقد ورد عن رسول الله ﷺ: **إنّ أخوفَ ما أخافُ عليكُم الشركُ الأصغَرُ»** [رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقي]. أما إن كان ولا بد من إظهار العمل، فعلى المرء أن ينوي بذلك أن يقتدي به الناس، أو أن يظهر نعمة الله عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ [الضحى: ١١].

٩٢ـ إجتناب العجب والكبر

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :

«لا يَدخُلُ الجَنَّةَ مَن كانَ في قلبه مثقالُ حَبّة من خَردَل من كِبر، ولا يَدخُلُ النارَ مَن كانَ في قلبه مثقالُ حَبَّة من خَردَل من إيمان» [رواه مسلم]

الكبر والإعجاب بالنفس من الذنوب المهلكة. وعلاج الكبر التواضع. والعجب بالنفس محبط للأعمال أو مسبب للعقوبة الدنيوية والأخروية، قال الله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ [التوبة: ٢٦]

عن مطرف بن عبد الله الشخير[1] قال: لئن أبيت نائمًا وأصبح نادمًا أحب إليّ من أن أبيت قائمًا (أي يقوم الليل بالعبادة) فأصبح معجبًا. إن العجب يدعو إلى نسيان الذنوب أو إستصغارها، والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه ويظن أنه عند الله بمكان وأن له على الله منّة وله عنده حقًّا بأعماله التي نسي أنها هي نعمة وعطية من عطاياه جل جلاله وقد يخرجه العجب إلى أن يثني على نفسه ويحمدها ويزكيها، وقد نهى الله تعالى أن يزكي المرء نفسه فقال: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم:٣٢]، فمن أعجب برأيه وعمله وعقله منعه ذلك من الاستفادة من الاستشارة والسؤال فيستبد برأيه ويعجب بالرأي الخاطئ الذي خطر له فيفرح بكونه من خواطره ولا يفرح بخواطر غيره فيصرّ عليه ولا يسمع نصح ناصح ولا وعظ واعظ بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال والازدراء ويصرّ على إخطائه. فلذلك كان العجب من المهلكات ومن أعظم آفاته أن يغتر في السعي (والعمل الصالح) لظنه أنه قد فاز (بالجنة) وأنه قد استغنى (عن المزيد من الصلاح) وهو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه. وعلى المرء أن لا يرى لنفسه فضلاً على أحد وأن لا يزدري أحدًا، فرُبّ رجل هو على الكفر اليوم يكون أفضل منك غدًا، ولا تزدري حتى الكلب فإن الله تعالى قادر على أن يجعل المرء شر منه كما قال: "**إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً**»[2]

ومن الأسباب المؤدية إلى العجب بالنفس سماع المديح من الغير، ومثل هذا المدح منهي عنه، قال ﷺ: "**أحثوا الترابَ في وُجوه المدّاحين**» [رواه مسلم والترمذي وابن ماجه وأبو داود وأحمد]، ويستحب لمن سمع مديحًا من غيره أن يقول: اللهم إجعلني خيرًا مما يظنون، ولا تفتنّي بما يقولون، واغفر لي ما لا يعلمون.

---

(١) مطرف بن عبد الله الشخير الحرشي العامري كان من كبار زهاد التابعين، ولد في حياة النبي ﷺ، وروى حديثه وهو ثقة في رواية الحديث. أقام بالبصرة وتوفي سنة ٨٧هـ.

(٢) كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، الجزء الثالث، كتاب ذم الكبر والاختيال.

٩٣ـ محاسبة النفس

عن شداد بن أوس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :

«الكيّسُ مَن دانَ نَفسَهُ وعَمِلَ لما بَعدَ الموت والعاجزُ مَن أتبَعَ نَفسَهُ هواها وتمَنّى على الله الأماني» [رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد والحاكم]

قال الله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩- ١٠]، فالمحاسبة خير وسيلة لتقويم إعوجاج النفس بين حين وآخر لغرض تزكيتها. ويكون أساس المحاسبة هو مقارنة ما تفعله النفس مع ما يطلبه الشرع. فإن كانت قد وفّتْ، فهل يمكنها أن تزيد إحسانًا ؟ وإن كانت مقصّرَةً، فما السبيل إلى تقويم اعوجاجها ؟ والوسيلة إلى تنفيذ ذلك هو مخالفة هواها. قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾[النازعات:٤٠- ٤١]. قال الإمام علي ﷺ: إنما أخشى عليكم اثنين: طول الأمل، وإتباع الهوى، فإن طول الأمل ينسي الآخرة وإن اتباع الهوى يصد عن الحق، وإن الدنيا قد إرتحلت مدبرة وإن الآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب وغدًا حساب ولا عمل. إن على المرء أن يقاوم شهوات نفسه ولا يستسلم لها أبدًا فكل شهوة يستسلم لها يمكن أن تؤدي به إلى نار جهنم. فشهوة الطعام والشراب إن استسلم لها أكل الحلال والحرام وربما ترك الصيام، وشهوة الفرج إن استسلم لها قادته إلى الفاحشة، وشهوة الانتقام إن استسلم لها قادته إلى الظلم، وشهوة التسلط إن استسلم لها قادته إلى العجب والطغيان وشهوة التكاثر بالأموال والأولاد إن استسلم لها قادته إلى اكتساب المال الحرام وحسد الناس وظلمهم وعدم دفع الزكاة، وشهوة النوم والخمول والكسل تقوده إلى تَرْكِ الصلاة وترك الاكتساب، وحب الحياة إن استسلم لها تَرَك الجهاد. ويريد الله أن يُعِينَ المسلم على أن يكون حاكمًا لأهواء نفسه بمخالفتها فيما ليس من صالحها. اسمع قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وبَيَّن ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]. وقد أوضحت السنة المطهرة حدود مخالفة الهوى لأن هذه المخالفة ليست مقصودة بذاتها بل لتقويم اعوجاج النفس وتطويعها، وإلاّ إن زادت عن حدها انقلبت إلى رهبانية مبتدعة ليس للمرء فيها من ثواب.

قيل لأحد الصالحين(١): إن فلانًا يمشي على الماء، فقال عندي أن من مكنّه الله تعالى من مخالفة هواه فهو أعظم من المشي في الهواء. وقال أبو سليمان الدارني(٢): من أحسن في ليله كوفئ في نهاره، ومن أحسن في نهاره كوفئ في ليله، ومن صدق

(١) أبو محمد عبدالله بن محمد المرتعش النيسابوري، صحب الجنيد وأبا عثمان وأقام ببغداد بمسجد الشونيزية. كان معروفًا بالمكاشفات، توفي ببغداد سنة ٣٢٨هـ.

(٢) أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الدارني: ينسب إلى قرية دارنا من قرى دمشق. كان عالمًا ورعًا. توفي سنة ٢١٥هـ.

في ترك شهوة كوفئ مؤنتها، والله أكرم من أن يعذب قلبًا ترك شهوة لأجله. قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[العنكبوت: ٤٨]

٩٤ـ الخوف من الذنوب

عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال:

«إن المُؤمنَ يَرى ذَنبَهُ كأنـَهُ في أصل جَبَل يَخافُ أن يَقـَعَ عَليه وإنّ الفاجرَ يَرى ذُنوبَهُ كَذُباب وَقـَعَ عَلى أنفه فقال لهُ هكذا» [رواه الترمذي وأحمد]

قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣١]، فالمؤمن لا ينظر إلى نفسه إلاّ بعين اللوم والمحاسبة ولا ينظر إليها بعين الفخر والتزكية والعجب. وهكذا فهو بذلك يرقى في مراتب القرب من الله غير ملتفت إلى ما حصل عليه من ثواب آملاً المزيد، بل يخاف من الذنوب والخطايا مهما كانت صغيرة فرب مهلكة صغيرة أحبطت أعمال خير كثيرة، ولسان حاله يقول: لا تنظر إلى صغر ذنبك ولكن إنظر لمن عصيت!! وإن أكبر عقبة في إكتساب درجات القرب من الله تعالى هو التهاون في المعاصي. فالمؤمن يخاف ذنوبه مهما كانت صغيرة و يراقب نفسه، ويستغفر الله مما ألمّ به من ذنوب على الدوام، فرب صغائر اجتمعت على صاحبها فأهلكته، كما سبق في الحديث(63) . لذلك فالمؤمن يخشى الله ويَتَّقْهِ ويرجو رحمته وثوابه ولا يتَّكِلَ إلى عمله مهما قدم من أعمال صالحة. فرسول الله ﷺ يقول: **"لايَدخُلُ أحد الجنّة بعَمَله "**، قيل ولا أنت يارسول الله!! قال: **"ولا أنا إلاّ أن يتغمَّدَني اللهُ برَحمَته»** (أنظر الحديث ١١). وهذا الأسلوب وسيلة لتزكية النفس وتطهيرها مما يلمّ بها من ذنوب ومعاصي مهما كانت صغيرة. وفي مقابل ذلك إن رأى ذنبًا من غيره ستره والتمس لصاحبه العذر فذلك دأب الصالحين دوما.

٩٥ـ الحذر من الحسد

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :

"الحَسَد يأكُلُ الحَسَنات كما تأكُلُ النّارُ الحَطَب» [أخرجه أبو داود وإبن ماجة]

المؤمن ينظر في أمور الدنيا إلى من هو دونه فيحمد الله تعالى ويمد يد العون إلى غيره، وهو ينظر في أمور الآخرة إلى من هو فوقه فيتسابق إلى عمل الخير: ﴿ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ [البقرة: ١٤٤ و المائدة: 84]. الحاسد لا يرضى بقدر الله وقضاءه وقسمته لنعمه بين عباده. قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]، قيل إن ما بطن هو الحسد. قال الحسن البصري: يا ابن آدم لم تحسد

أخاك؟ فإن كان الذي أعطاه كرامة عليه فلم تحسد من أكرمه الله؟ وإن كان غير ذلك فلم تحسد من مصيره إلى النار؟

والحاسد عدو لنعم الله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[النساء: ٥٤]. وقال عون بن عبد الله يعِظُ الفضل بن المهلب وهو يومئذ والي واسط: إياك والحسد فإنما قتل إبن آدم أخاه حين حسده: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[المائدة: ٢٧]، والحسد ظلم لأنه تمني زوال نعمة من الله على الغير وهو مكر سيئ، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾[فاطر: ٤٣]، فلله در الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله كمدًا وحسرة.

والحسد محرَّم إلاّ في موضعين: هما أن يرى المرء رجلاً أوتي علمًا فهو يعمل به ويعلّمه الناس، أو رجلاً أوتي مالاً فهو ينفقه في سبيل الله فهو يتمنى أن يكون مثلهما، أو مثل أحدهما لا أن يتمنى زوال النعمة عنهما.

٩٦ـ إجتناب الظن

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :

"إيّاكم والظن، فإنّ الظنّ أكذبُ الحَديث» [متفق عليه]

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]. يجب على المسلم أن يحسن الظن بالمسلمين فلا يتّبع عوراتهم لأدنى شبهة، خاصة فيما لايعنيه. أما الحذر فهو غير الظن: قال تعالى: ﴿وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ [التغابن: ١٠٢]، كما أن المؤمن كيّسٌ فَطِن، ولايُلدغ من جُحْرٍ مرتين، فإذا ما استنتج من ظواهر معينة أمورًا خفية فيها مصلحة للمسلمين، فذلك غير الظن السوء المنهي عنه.

إن من الناس من لا يثق بأحد، فهو على الدوام يظن بهم سوءًا ولا يتصور حسن نية من أحد. وهذا داء لصاحبه يقلب حياته شقاء ولا ينعم بساعة من حياته. أما الخطرات التي تخطر ببال الإنسان فلا يتبعها بتحقق الأمور التي خطرت له ولا يتحدث بها ولا يبالي بها فهي من حديث النفس المعفو عنه ما لم يتبع ذلك بتجسس وتتبع لعورات المسلمين. وكثيرًا ما يكون الظن معبّرًا عما في داخل نفس المرء نفسه، فإن كان منافقًا ظن أن كل الناس منافقون، وإن كان غشاشًا ظنهم كذلك، وإن كان مرائيًا ظن أن الناس كذلك. أما المؤمن فيحسن الظن بالمسلمين ويفسر الأمور على أصلح وجه ويلتمس الأعذار لغيره، فإن أخطأ في حسن الظن مائة مرة خير من أن يخطئ بسوء الظن مرة واحدة.

٩٧ـ الاستغناء عن سؤال الناس

عن أبي عبد الرحمن عوف بن مالك الأشجعي قال: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: "**ألا تبايعونَ رَسول الله؟**»، وكنا حديثي عهد ببيعة، فقلنا قد بايعناك يا رسول الله. ثم قال: "**ألا تبايعون رسولَ الله؟**»، فبسطنا أيدينا وقلنا بايعناك يا رسول الله، فعلامَ نبايعك؟ قال: "**أن تعبُدوا اللهَ ولا تشركوا به شيئا، والصَلوات الخَمس، وتطيعوا اللهَ**»، وأسَرّ كلمة خفية: "**ولا تسألوا النّاسَ شيئا**». فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدًا يناوله إياه. [رواه مسلم]

البيعة لعامة المسلمين حينما كان يأخذها رسول الله ﷺ في غالب الأحيان، كانت تشتمل على أخذ الميثاق بعدم الإشراك بالله وطاعة الله ورسوله في المنشط والمكره (أي فيما يحب المرء وفيما يكره). أما هذه البيعة فهي بيعة خاصة لأولئك النفر، وهذا هو السر في خفض النبي صوته في أن لا يسألوا الناس شيئًا، فهذه هي العزيمة، وما كان رسول الله ﷺ ليأخذ عليهم العهد بعدم سؤال الناس شيئًا إلاّ بعد أن عرف من نفوسهم الاستعداد لذلك. وعدم سؤال الناس شيئًا قد يبدو لأول وهلة هو عدم الاستجداء من الناس. لكن أولئك النفر الكرام قد فهموا أمر رسول الله على عموم لفظه بعدم سؤال الناس أي حاجة كانت حتى ولو كانت مساعدة بسيطة (رغم أن ذلك ليس حراما)، لأن مثل هذه المسألة هي طلب صدقة ممن يؤديها.

إن سؤال العبد لغير الله فيه شيء من ضعف اليقين بالله تعالى. فالمؤمن قوي اليقين بالله تعالى لايسأل إلاّ الله ولا يستعين إلا بالله كما مر في الحديث (٦). ولذلك فهو يعمل بيده ويكتسب رزقه بيده ويتوكل على الله وهو عزيز النفس لا يستجدي من أحد. وهو يقدم مساعدة لمن احتاج إليها، وتلك صدقة تكتب له. أما هو فلا يسأل الناس صدقة إن استطاع أن يستغني عنها، وما أسهل الاستغناء عن كثير من الأمور غير الضرورية بالنسبة للمؤمن. أما ضعيفو الإيمان فيجدون كثيرًا من الأمور التافهة ضرورية، وبذلك تستعبدهم الدنيا فيصبحون عبيدًا لشهواتهم ولملذات الدنيا، ويكونون مستعبدين لمن يستطيع أن يقدم لهم حاجة من حاجات الدنيا التافهة. فالعزيمة في هذا الموضوع هي ترك سؤال الناس والاستغناء عن طلب مساعدتهم كلما كان ذلك ممكنًا، والرضا بما يستطيع المرء أن يفعله أو يحصل عليه بنفسه، لا تكبرًا وإستعلاءا، بل بأن يرى أن الأمور كلها بيد الله تعالى فلا يسأل أحدًا سواه.

٩٨ـ عدم التكلف

عن عبد الله بن عمر رضـي الله عنهمـا قـال: " **نهينـا عـن التكلّـف».** [رواه البخاري]

التكلف شكل من أشكال الرياء، فهو تصنُّع الفعل في غير موضـعه إبتغـاء مـديح أو سمعة أو إتصاف المرء بما ليس من صفاته حقيقة. قال عبد الله بن مسعود ﷺ: من علم شيئًا فليقم به ومن لم يعلم فليقل الله أعلم، فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم الله أعلم، قال الله تعالى ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [الصافات:٨٦]

يتكلف كثير من الناس تصرفات مختلفة بحيث شاع بينهم كذب الأفعـال وهـو مـا يدعى اليوم بالتقاليد الاجتماعيـة، فتـرى المـرء يعيش فـي ضـنك وينفق الكثيـر إبتغـاء سمعة أو دفعًا لقول سوء قد يلحقه فـي مناسـبة فـرح أو عـزاء، وتـرى النـاس يتركـون فعلاً يريدونه متصنعين الأعذار جـاعلين حيـاتهم عبًـا ثقيلاً، حتـى أن الأرحـام لتتقطـع تكلفًا. أما المؤمن فيصنع الفعل ببساطة ودون إخفـاء شـيء وإظهـار آخـر، ولا يتكلـف أن يفعل فعلاً ليس بنيته فعله.

وقد يقود التكلف إلى إرتكاب المعاصي: كالدَّيْنِ ثم المماطلة فيه وعدم وفائـه، أو الاكتساب من الحرام. كما قد يقود إلى الكذب والبحث عن الحجج الواهية لتبرير فعل معين. إن التكلف هو في حقيقته النظر إلى الأمور بعين السطحية، أي فـي مظاهرهـا دون جوهرها. والتكلف هو مقدمة إلى النفاق، حين يظهر المرء مـا لا يـبطن. كمـا أن أحد أسباب التكلف هو الكبر، حيث يخشى المرء مثلاً أن يقول عن أمـر لا يعرفـه: لا أعلم، فيتكلم فيه بغير علم. إن قول الشعر لمن لم يؤت القابليـة اللازمـة لـه تكلـف، و التظاهر بزي الأغنياء للفقراء من التكلف... وهكذا.

يحب هذا الدين أن يتصـرف المـرء علـى سجيته دون إصـطناع للتصـرف فلـيس التكلف من فعل المؤمن المستقيم.

٩٩ـ ذكر الموت

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :

"**أكثـروا ذكـرَ هـاذم اللَّـذات»**، يعنـي المـوت. [رواه ابن ماجه والترمذي وحسنه والطبراني]

الحيـاة الـدنيا بالنسـبة للمؤمن دار سفر وإنمـا الحيـاة حيـاة الآخـرة، فهـو يتـذكرهـا كثيـرًا. وتـذكره هـذا يدفعـه إلـى المزيـد مـن الإعـداد لهـا. وذلـك وسـيلة لتزكيـة الـنفس

وتذكيرها بخالقها وما عليها من واجبات، وذلك كان دأب الأنبياء، حيث وصفهم الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾[ص: ٨٦].

إن تذكر الموت وما بعده من أهوال القيامة والحشر والحساب والجنة والنار هو وسيلة لتزكية نفس المؤمن، فإذا ما تذكر العقاب خشي أن يفعل المعاصي وإزداد في عمل الخير. وعلى المؤمن أن يتذكر الموت بين حين وآخر وذلك حين يتذكر من سبقه من الأحياء الذين إنتقلوا إلى الدار الآخرة أو عند زيارة المقابر أو عند أخذه مضجعه للنوم، فما النوم إلاّ موت مؤقت.

أما نسيان الموت والخوض في الدنيا دون تذكر للقيامة والحساب، فإنه يؤدي إلى الطغيان والغفلة وارتكاب الآثام دون رادع من مراقبة أو محاسبة وعندها يقترب المرء من النار وهو لا يدري حتى إذا أدركه الموت ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ ﴾ [المؤمنون: ٩٩- ١٠٠]، فلا يستجاب له ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾[ص: ٤٦].

١٠٠ـعيشة الغرباء

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :

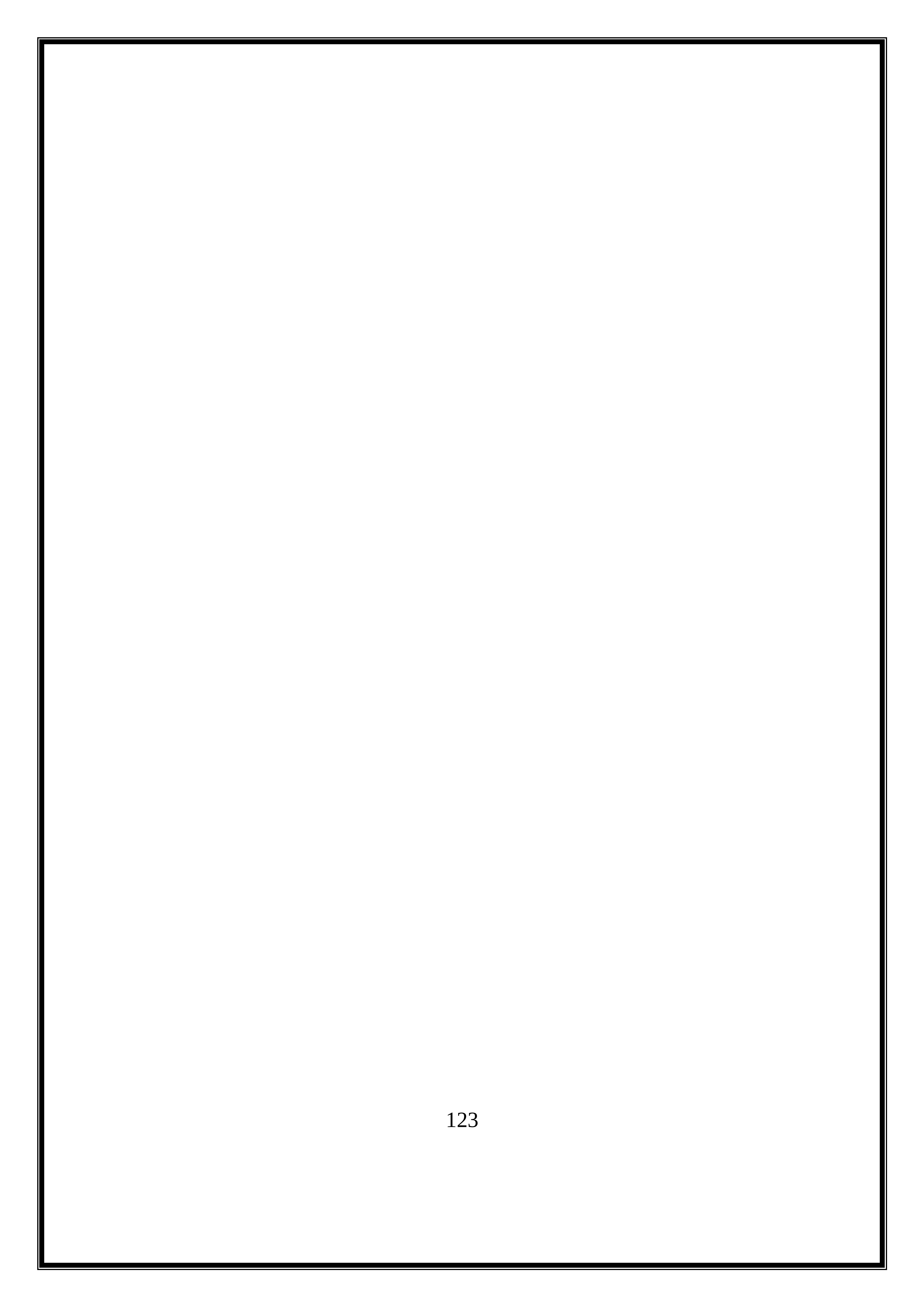
"بدأ الإسلامُ غَريبًا وسيعودُ كما بَدأ، فطوبى للغُرَباء»

[رواه مسلم وإبن ماجه والنسائي والترمذي وأحمد]

حين بدأ سيدنا رسول الله ﷺ دعوته في مكة، كان منهجه ودعوته أقرب ما تكون إلى فطرة الله التي فطر الناس عليها، ومع هذا كانت دعوته كلها وخاصة دعوة التوحيد، أغرب ما يكون بالنسبة للكفار حتى قالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴾ [ص: ٥]. وهكذا كلما إبتعد الناس عن نهج الصراط المستقيم رأوا هذا الدين غريبًا ورأوا أصحابه غرباء.

كان المسلمون الأولون غرباء في أهليهم. الوالد مسلم والولد كافر، والزوجة مؤمنة والزوج كافر، والولد مؤمن وأبواه كافران. غربة حقيقية للمؤمن في بيته. وحين كان المؤمن يقصد بيت الله الحرام ليؤدي صلاته يجد حوله ثلاثمائة وستين صنمًا تعبد هناك من دون الله، فيؤدي صلاته ثم يعود أو يخرج إلى البادية وحيدًا او مع أخ له أو أخوين بعيدًا عن أعين الكفار ليؤدي صلاته ويناجي ربه. ثم يعجب كيف يرى هذا الدين واضحًا قريبًا من فطرته، ثم يجد غيره أبعد ما يكونوا عن رؤية الحق وتصديقه، أليست تلك غربة ؟ وكان بعد تلك الغربة عزة ونصر مبين.

ويعود الإسلام غريبًا كما بدأ... ويلتفت المسلم حوله اليوم ليرى مصداق حديث رسول الله ﷺ... فطوبى للغرباء... فمن هم الغرباء...؟ هم إخوان رسول الله ﷺ الذين قال عنهم: "**وددتُ أنّا رأينا إخواننا**»، قيل أولسنا إخوانك يارسول الله؟ قال: "**أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعدُ** » [رواه مسلم وابن ماجه والنسائي]. هؤلاء الغرباء إخوان رسول الله ﷺ... هم الذين استقاموا على طريقته، فاتمروا بأمر الله وساروا على نهج نبيه واشتاقوا للقاء ربهم والشرب من حوض الكوثر من يد رسوله ﷺ، سواء عندهم الحياة أو الممات، يستغفرون إن أخطأوا ويشكرون ربهم على نعمائه، ويصبرون على قضائه ويعبدونه حتى يأتيهم اليقين، يفرّون من المعاصي فرارهم من وحوش الغاب، ويرجون رحمة ربهم يدعونه خوفًا وطمعًا، تتقلب الدنانير والدراهم بين أيديهم وليس في قلوبهم شيء منها، فهي أموال الله هم مستخلفون في هذه الدنيا برعايتها، يعيشون مع الناس بأجسادهم وقلوبهم محلقة في علياء ربهم، يعيشون مع ملائكته، يعمرون أرض الله بذكر الله وإعلاء كلمته، لو علم الملوك بحالهم وسعادتهم لقاتلوهم على تلك السعادة بالسيوف...وهم لا يخافون في الله لومة لائم... إنهم غرباء بين لائميهم... فطوبى لأولئك الغرباء ...



المحتويات